

المقطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر بعد المئة .

١٠ محرم سنة ١٣٦٩

١ نوفمبر سنة ١٩٤٩

آيَاتِي فِي خَلْقِي

١ - للحياة موكب هو من آيات الخلق

في الأساطير القديمة التي تتناقضها الأمم خلفاً عن سلف ، وفي قصص الميثولوجيا التي تتوارثها الأجيال ، حكايات عن أشخاص أو رواد أو أبطال وهبتهم الطبيعة قدرة خاصة على فهم منطق الحيوان ، الذي يظن الكثيرون أنه أبكم لا يقدر على شيء .
غير أنه من خطر القول ، ومن الاعتداء الصريح على القوة التي تدبر الأشياء ، أن يقال بأن الحيوانات التي تقع من نظام الطبقات الحية في مرتبة تعلو مرتبة الأسماك الهلامية ، عاجزة عن أن تتفاهم بالأصوات الشفوية التي تخرجها . على أن بعض الحيوانات العليا فيها من الذكاء والقدرة على الفهم ما حمل « ألفونس كار » على أن يقول مرة إن كلبه يستطيع أن يفعل كل شيء ما عدا الكلام . غير أنه حمد الله على أن كلبه عاجز عن ذلك ، وإلا لأزعجه بالثرثرة وكثرة الكلام وتكرار الشيء الواحد آلاف المرات .

وعلى الرغم من أننا لم نزود بكفاية القدرة على فهم منطق الحيوان ، ذلك المنطق الذي يتألف من اشاراته وأصواته الشفوية ، فإن البحوث الحديثة قد هيأت لنا فرصة الوقوف على حقيقة المخلوقات التي تعايشنا فوق هذه الأرض ، فرفعنا بعض الحجب التي لا يزال كثير

منها يغشَى على مباحث التاريخ الطبيعي ، حتى بعد أن أفلح العلامة لينايوس ، بثاقب بصره وواسع علمه ، في أن يقفنا على العلاقات الأساسية التي تربط بين نواحي عالم الأحياء .

في سنة من أوائل سني القرن العشرين ، وجّه محرر إحدى الجرائد اليومية سؤالاً للسير « هربرت مكسويل » عضو المجمع الملكي البريطاني ليعيّن له اسم الكاتب الإنجليزي الذي خلف أكبر الأثر في توجيه الفكر الإنساني في القرن التاسع عشر . ولم يكن هذا السؤال مما يجاب عليه عفواً خاطر ، ولكن سير مكسويل تناول القلم وكتب بغير تردد اسم : « تشارلس روبرت دارون » .

قد يتفق أن يوجد من يأنف أن يُضنّفَ هذا المشرف على عالم مواليدي (طبيعي) دون مجموعة اللاهوتيين والمؤرخين والفلاسفة والأخلاقين والشعراء وكتاب المقالة والقصصيين الذين أُنجمهم القرن التاسع عشر برمته ، ومنهم من خلّف آثاراً دمع بها الفكر بطابع ثابت في الناحية التي تمشّت فيها مواهبه . غير أن الواقع أنه لم يتح لواحد من هؤلاء أن يستقوى على ما استقوى عليه « دارون » من روح العناد والمناخفة عما أتى به من حقائق العلم الطبيعي في أي فرع من فروع المعرفة ، ولم ينتصر غيره في مجاله انتصاره في مجال ذلك العلم ، ولم يخلف غيره من بالغ الأثر ما خلّف من النتائج وأساليب البحث في ميادين النشاط العقلي .

ليس لنا أن نستطرد إلى الكلام في « دارون » وهل أمكنه أن يؤلف جميع حلقات التطور في عقد نظيم من الأفكار المسلسلة ، أو إنه عزى إلى نظرية الانتخاب الطبيعي من الآثار أكثر مما لها في حقيقة الأمر . فإن هذه الأشياء من شأنها أن تظل زمناً آخر مثاراً للمناقشة والخلاف . أما الذي أجمع عليه الناس فهو أن دارون إذ استجمع كل حقائق العلم والبحوث التي تقدمته واستوعبها وأنعم للنظر فيها مؤيداً بعضها نابذاً البعض الآخر ، وإنه إذ أثبت صحة الكثير منها بملاحظات شخصية دقيقة ، وأضاف إليها نتائج القدرة البشرية في استيلاد الحيوانات الداجنة ، قد وفق إلى رفع علم الأحياء في جلته وفي متجهه إلى ذلك المستوى الرفيع ، وأضفى على الحياة لوناً مشيراً للعجب ، باعثاً على الاجلال

والإكبار ، بل أنه أَلَف بين ما كان متنافراً في العقل من صور الحياة وفي بعث الحياة موكباً حافلاً ، هو الآية الكبرى من آيات الخلق .

ولكن ذلك الموكب الذي حشد فيه « دارون » كل صور الحياة ، لموكب دموي ، آيته الموت والقتل والفناء ، ليبقى في النهاية من الأحياء ما هو جدير بالحياة ، سنّة الانتخاب الطبيعي والتساحُر على الحياة وبقاء الأصلح . ولكن ذلك المجلي لم يرض قلوب الكثيرين ممن كانوا يرون أن الحياة روض ، والأمل زهرة ، والإنسان في الدنيا عابر سبيل ، كما يقول « أولثر جولد سميث » ، وحز في نفوسهم أن يصبح ذلك الروض الذي تخيله الشعراء وذلك الأمل الذي نَمَّاه الفلاسفة ، إنما هو ميدان معركة دائمة يفوز فيها الأقوى والأصلح والأصبر على مكاره الحياة ، لينقل إلى أخلاقه الصفات التي جعلته يتفوق في المعركة التي اجتازها عن جدارة واستحقاق .

والواقع أن هذه المعركة قائمة في جميع طبقات الأحياء من أدناها إلى أرقاها ، بين الحيوان والنبات ، وبين النبات والحيوان ، وبين الحيوان والحيوان ، وبين النبات والنبات . ولكن ما هو السبب في ذلك ؟ سببه في الحقيقة أن المبدأ الذي تقوم عليه الحياة واحد هو الخلية الحية ، هو بعينه في الحيوان كما هو في النبات .

لا ينافح الحي عن حياته تلقاء أحياء أخرى ، أو يكافح عنها إزاء الطبيعة وأعاصيرها العاتية نحسب ، بل ينافح عنها إزاء الحر والبرد والرطوبة والجفاف وغير ذلك . فقد كان من حظ العلم أن يصل بأدواته وجهازاته المبتكرة إلى حقائق خفيت عن الناس القرون تلو القرون . فقد كشف الأحيائيون عن أحياء في أماكن وبقاع لم يحلم أحد بأن الحياة تستطيع البقاء فيها .

فقد صحب سير « أرنست شكلتون » في رحلته إلى القطب الجنوبي عالم أحيائي هو مستر « جيمس موري » . فغمر هذا العالم جرّة إلى عمق خمسة عشر قدماً في بركة جمد ماؤها وأخرجها فاذا بها تلج بحبيونات تعرف باسم الحبيونات الدوارة ، وأخرى تعرف باسم دبية الماء أو المقربوط .

ظلت هذه البركة عامين في خلال وجود البعثة متجمدة الماء . وربما كانت قد ظلت كذلك سنين كثيرة قبل وفود البعثة الى تلك الأصقاع النائية ، وربما كانت قد ظلت قروناً على تلك الحال ، بقيت في خلالها هذه الحيويونات في حالة اندفان ، وفي محيط نزلت درجة حرارته الى أربعين درجة فارنهایت تحت الصفر . لا يلوح في مثل هذه البيئة أي مظهر من مظاهر الحياة على هذه الكائنات . إن حياتها ترتد الى كمون .

ولكن لم يلبث العالم الاحيائي أن يضع هذه الحيويونات في محيط مائي ملائم الحرارة ، ويعرضها للضوء ، حتى أخذت هذه الدورات وغيرها مما خرج في الجرّة في الحركة والسمي وراء الرزق والعمل على إخلاف النسل ، إما باخراج البيض ، وإما بالتوالد . على أنك لا تعجب بعد ذلك إذ اعلمت أن هذه الأحياء ليست سوى حيويونات مجهرية (مكروسكوبية) تكشفها لأبصارنا قوى المجاهر وحدها ، وأنها فوق ذلك من أوالي الركب في موكب الحياة . ولعلنا فيما يلي نوفق الى الانتقال بك الى منظر آخر من مناظر ذلك الحفل العظيم .

٢ - اللصوصية في موكب الحياة

الجرذان لصوص مدربة

لا أريد أن أثقل على القارئ بذكر العلماء ، وقد أسرفت بعض الشيء في ذكر « دارون » ومنزلته ، فأثرت أن أجعل في هذه البحوث من المزاوحة بين الطعوم ، ما لا يشق على الذوق أن يألفه . على أي إذا كنت قد أسرفت بعض الشيء في الكلام عن « دارون » ونظرياته » ، فإنما كان ذلك عن حاجة لأظهر أن هذا العالم قد كشف عن أن للحياة موكباً يسير ، وقافلة تضرب في سهول الحياة ، وأن الحياة بما فيها من مختلف الصور ، هي عند الحقيقة وحدة لا تتجزأ ، وأنها تبث في الأحياء من الصفات والطباع ما يشترك في غايته ، وإن اختلف في أسلوبه ووسيلته .

لقد خصّ الفيلسوف بيدبا الجرذ بالكثير من عناية الذكر في كتابه « كلية ودمنة »

فأبان عن ما فيه من صفات حميدة وما فيه من حرص ، وما اختصَّ به من دهاء . ففي كثير من فصوله الممتعة كان الجرذ صديقاً وقيساً ، أو ناصحاً أميناً ، أو أريباً حذراً ، أو مفكراً منطيقاً . بل إنه في باب الجرذ والسنور جعله المسكافح المنافع في الحياة ، العالم بطرق الجهاد والجلاد ، المحتال على العيش ، الساعي إلى الرزق ، العامل على المنافسة في دنيا الأحياء . ولكن هذا الفيلسوف على كثرة ما ذكر الجرذ فإنه لم يتخذ منه غير رمز يرمز به إلى حياة الإنسان ، ومثل يضرب على ما ينبغي للإنسان أن يدأب عليه ، وما لا ينبغي له أن يسعى إليه من أحوال العيش . معنى هذا أنه لم يبحثه بحث العالم ، بل بحثه بحث الفيلسوف المتأمل . ولعلني لا أكون مخطئاً إذا قلت إن أول من بحث الجرذ بحثاً علمياً كان الطبيب العالم ابن بختيشوع في كتابه « منافع الحيوان » .

ولا أعرف على وجه التحقيق إن كان في المكتبة العربية نسخة من هذا الكتاب ، وإنما اطلاعي كان على مخطوط فارسي مصوّر ، نقشت فيه رسوم منها رسم يبين كيف تنقل الجرذان بيض الطيور ، وكيف تفتن في نقله حتى يصل إلى جحورها سليماً . ولا شك في أن الرسم الذي يبين هذه الحقيقة في هذا الكتاب هو أقدم صورة عرفت في تاريخ علم الحيوان . جاء في ذلك الكتاب ما ترجمته :

« يستلقي أحد الجرذين على ظهره ممسكاً البيضة بين أطرافه الأربع (قدميه ورجليه) من فوق بطنه ، في حين يحجره الجرذ الآخر من ذنبه ميماً نحو الجحر » .
ومن هذا الكتاب نسخة فارسية مصورة محفوظة في مكتبة « بير مونت مورجان » فيها أن الفراغ من كتابتها كان في سنة ٦٩٠ هجرية في مدينة فرغانة ، أي أنها كتبت في العصر المغولي .

ولقد حقق العلم الحديث تلك الرواية بعد أن ظلت معتبرة من الأساطير زماناً منذ أن نشر الكاتب الفرنسي المعروف لافونتين كتابه المشهور ، ولا سيما قصته المعروفة بعنوان : « الجرذان والثعلب والبيضة » .

Les Deux Rats, le Renard, et l'Oeuf. (No CLXXXIX Fables) .

ولكن هذا لم يصبح الآن خرافة بل حقيقة أيدها المشاهدات وعني بدرسها العلماء ،

ومن المؤلفات التي يعتمد عليها حتى الآن مؤلف العالم الانجليزي « جيمس رودويل » .
« الجرذ : تاريخه وصفاته الهدمية » :

The Rat : Its History and Destructive character by James Rodwell : 1858

ولقد عقب على هذا الكاتب غيره من الباحثين منهم العلامة المواليدي « تورم سبيدي »
الذي يروي القصة التالية :

دخلنا مسرعين إلى حظيرة اعتاد الدجاج أن تلقي بيضها فيها ، فرأينا في ناحية منها
جرذاً كبيراً يحمل بيضة من المذود متجهاً بها إلى جحر في ناحية منه ، فكان يحتضنها
بإحدى يديه دالفاً بأطرافه الثلاثة الأخرى بحرص وعناية حتى لا تنكسر . فلما شعر بنا
ألقاها ولاذ بالفرار .

ومما روي أيضاً أن جرذين قد استطيعان نقل بيضة من فوق سلم ذي درجات إلى حيث
يريدان . قال الأستاذ « رودويل » :

لاحظ صاحب معمل للحلوى أن البيض يسرق بطريقة لم يتبينها ، فأخذ يراقب الأمر
حتى إذا كان ذات يوم بصر بجرذين ذكر كبير وأنثى أصغر منه حجماً على درجة من
درجات السلم ومعهما بيضة ينقلانها بحرص وتؤدة ، فنزل الجرذ الكبير درجة من السلم
ووقف على رجليه ماداً يديه فوق الدرجة العليا ، وأخذ الجرذ الآخر يدحرج البيضة
بهودة حتى كانت عند يديه فأمسك بها محتضناً إياها بعناية ثم انحنى بها حتى وضعها على
الدرجة ، وتريث حتى هبط إليه الجرذ الآخر وتسلمها منه ، ثم نزل الجرذ الأول درجة
أخرى ، وتلقاها كما فعل أولاً ، وما زالا يهبطان حتى بلغا نهاية الدرج .

ألا نجد في هذا عذراً لأولئك الذين قالوا « إن الحيوان إن امتنع عليه الكلام ، فإن
الطبيعة قد عوّضته عنه بقدر من العقل ، وقسط من الحيلة ، تسليح بهما في معركة الحياة ؟ ألسنا
نجد في هذا وأمثاله عذراً لأولئك الذين أنطقوا الطير وألهموا الحيوان في قصصهم الرائع
وحكمتهم الباقية ؟

صديقي

صديقي كنت في الماضي في المثل العليا
 وكنت تلوم من لف إذا لف مع الدنيا
 وكنت تقاتل الأيام في صبر وإيمان
 فما تعباً بالظالم أو تحفل بالشاني ..
 تضيء نجومك الزهراء وجه الأرض حولي
 وأرجوك إذا لم أرج من ذي خلق شيئاً
 فلم ألت أراك الآن ما قد كنت بالأمس؟
 ولم بدلت مثل الأفق بين الليل والشمس؟
 وأين الحانة العذراء فيها الوتر القدسي؟
 وأين الصفو والإدراك بين النفس والنفس؟
 دسست الطين في مجراي والأفداء في كاسي
 وأصبحت ألقى اليوم إيمانك بالحدس
 فأبكي كنزي المفقود إذ أخلو بأوهامي
 وأعرف أنني ضيعت مع مثليك أيامي !!
 أجل يوماً على الاخلاص كنت المثل الحيأ
 وكنت معي صريح القلب لا محتجز الرأي !!
 ... فيها أنت تعود الآن في ثوب بألوان
 فقد خفت على شانك أن يحقه شاني
 غداة عرفت أن الناس قد ضجوا بألحاني
 وأني قبلك المذكور في صحب وخلان
 فأعملت سواد العقل في هدي وخذلاني
 فأحذر جانب الصل الذي ناغيت بالأمس
 وأبكي خلتي المفقود .. بالأشجان في نفسي
 وأنت الأبيض الشائق كنت تلوف بالأسود
 وكنت ترافق «المنبوء» هل تنكر؟ - للمعبد !

فلم أنت تنادي الآن بالأصل وبالسؤدد ١١؟

... لأنك بعد هذا اليوم لن تسمى ولن تجهد

ستسمى دونك الأرحام في ذا البلد الأنكد ١١

ألا لست أكيل اللوم - إني مدرك حالك

فإني قد وجدتُ الناس - جل الناس - أمثالك

... ضعاف يشرعون الخير ضد الغائل الأقوى

لكي لا يجرموا الماء كل والمشرّب والمأوى

فأما ساعف الدهر .. فلا خير ولا تقوى !

وكم طاغية بالأمس لما أن طفئ هالك

فها قد أصبح الطاغوت في المعبد تمثالك

وكنّت المعجب المفتون بالشعر وترويه

فلما مال عنه الناس جهلاً أو غلوا فيه

مشيت على طريق الناس تنديداً بأهليه

ورمياً للفتى الشاعر بالعجز وبالتيه

وما الشاعر لو تدري سوى العاقل في الدنيا

ولو فقتت في الشعر وجدت الحكمة العليا

وجدت حقيقة الانسان لا الوهم ولا الرؤيا

فلا والله لم يترك لعلم اليوم من بُقيا

ولكن غرور الناس قد يتركهم عمياً .. ١١

وتأتي الحُسق يا خلّي وتدعو الحُسق تزكينا

وأذهى منه أن تحسب أنني قلت آمينا

فتمضي بين كل الناس تدعوني مأفونا

.. فلم تحسبني أحمل منك الضرر والهونا ٢٢

سألني بك للبرد وألقي كل أضرابك

فإن الدف قد هبج ذاك السم في نابك !

يوسف جبرا

القاهرة

نظرات في النفس والحياة

- ١٧ -

تكلمة نظرات جوتا

يحتفي الأدباء هذه السنة بإحياء ذكرى (جوتا الألمانية) ولقد عادت المانيا مجزأة كما كانت في عهده. وكان (جوتا) ينكر الحروب وقسوتها ويندد بفظائعها التي سماها فظائع الأبالسة. وكان في صباه قد اشترك في الحملة على الثورة الفرنسية التي تمخضت عن الجمهورية الفرنسية الأولى. وكان (جوتا) يرغب في السلم العالمي الذي ينشده العالم الآن، كما كان راغباً في ثقافة عالمية كما يرغب اليونيسكو. ولهذا الأسباب كان هذا الوقت أنسب الأوقات للاحتفاء بذكراه. ولم يكن (جوتا) من طبقة الأشراف، بل أسبق عليه صديقه أمير ويمار لقب الشرف. وقد ذكرنا في المقال السابق أنه في شبابه ألّف قصة (أحزان ورتز) التي اشتهرت في عهدها كاشتهار قصة (كلاريسا هارلو) لرتشاردسون الإنجليزي و (هلواز الجديدة) لروسو وكانت على طريقة (السنتمنتاليزم). ولقوة أثرها في النفوس حاول بعض الشبان التشبه (ببطل) القصة. ومن أجل ذلك لم يكن أثرها حميداً، اتسع نطاق فكر (جوتا) ونطاق نفسه بعدها، وبالرغم من أن مواقفه الغرامية كانت بها عاطفة غرامية صحيحة، إلا أنها كانت ممزوجة بالرغبة في التجربة والخبرة صنع العالم المجرب. وكانت تتنازع نفس (جوتا) العاطفة والرغبة في الخبرة وهذا التنازع كان في كل الأمور، ومن أجل ذلك كان أديباً وكان عالماً. وقد ذكرنا أنه كان يميل إلى المذهب الكلاسيكي وصفاته من سلاسة وسهولة ووضوح كما في قصته (هرمان ودوروثيا)، كما كان يميل أحياناً إلى الشعر الفلسفي، أو إلى الخيال الرمزي، كما في بعض أجزاء القسم الثاني من (فوست) المسمى (هيلينا). والحقيقة إنه كان يشعر بلذة فنية في تجربة كل نوع من الثقافة والأدب، فقد قرأ مرة قصيدة تأبط شراً التي مطلعها .
إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطْلُ

وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية فترجمها (جوتا) إلى الألمانية لإعجابه بها. وهذا كما ورد في كتاب (تاريخ العرب الأدبي) للعلامة نيكلسون الإنجليزي. و(جوتا) ديوان سماه (ديوان الغرب والشرق) يخاكي فيه بعض الشعر الشرقي، وسمع مرة أن الإسلام هو الاستسلام لارادة الله في كل شيء، فقال هذا ما ينبغي أن يكون عليه كل إنسان. وألف حكمة في هذا الموضوع. وقصص (شيلر) التمثيلية على العموم أوقع. إذا قارنا بين قصص (جوتا) أمثال (اجونت) و(تاسو) و(جوتز) و(افيغنيا)، وبين قصص (شيلر) أمثال (وليام تل) و(ماري ستوارت) و(والنستين) و(دون كارلوس) و(الصوص). وقد ترجم (كارليل) قصة (جوتا) النثرية المسماة (ولهم مايستر) إلى الإنجليزية، ولكنه عاد يتامل ويتأفف من بعض حوادثها، والواقع أن هم (جوتا) وغرضه هو أن يعرض كيف اكتسب بطل القصة ثقافة حتى من الحوادث والمخالطة الوضعية، ولم يقصد بالثقافة الزهد، فقد كان (جوتا) زاهداً في الزهد، بل كان يراه مؤدياً إلى ضيق النفس والفكر، وإنما كان يعني بالثقافة استخلاص الحكمة الصائبة من تجارب الحياة.

وكانت روح (جوتا) روحاً عالمية تخطت حدود وطنه واحتضنت العالم، حتى إنه أثنى أن يكره الفرنسيين في عهد نابليون عند ما غزوا ألمانيا. وقال لاكرمان كيف أكره أمة أنامدين لها بجزء كبير من ثقافتها، والثقافة هي كل شيء. وقال (أوسكار وايلد) في رسالة (الناقد صاحب الفن): كان جوتا أول من جرأ وجاهر بهذه الفكرة العالمية، وسيزداد أثرها في العالم حتى تؤدي إلى ترجيح العالمية، ويمحو النقد الفرق الخاصة، ويقرب توحيد العقل البشري على اختلاف أمكنته، وقد نقده بعض الأدباء نقداً شديداً كما فعل مينزل، وبعضهم كان نقده يخالطه الإعجاب به مثل نقد هيني الشاعر الألماني.

وفيما يلي تكملة لما أختير من كلماته ونظراته مع بعض التعليق: —

(١) كل إنسان له أخطاء وصفات نقص أو عيوب لولاها ما وجدت شخصيته وفرديته التي يمتاز بها، ومن أجل ذلك نأثس في بعض الأحيان إلى أخطاء وعيوب أصدقائنا القدماء، إذ لولاها محبت شخصيتهم وصاروا أناساً آخرين. فإذا تخلص أصدقائنا منها مرة واقتقدناها فيهم أنكرناهم، وقد نشعر بقلق إذ نشعر بغير المؤلف منهم. والواقع إن

هذا ليس في الأصدقاء خسب، فإن الحياة كلها مثل حجرة عُلِّقَتْ صور على جدرانها، فإذا أزيلت بعضها من مكانها ربما أحسنا بقلق هو شبيهه بقلق التشاؤم بالامر غير المألوف، وكأن إزالتها من مكانها نذير بالموت والفناء .

(٢) ان الإنسان قلما يستطيع أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم، لأن كلامهم يمر خلال احساساتهم وخوارج نفوسهم، ولو استطاع الانسان أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم وتأويله حسب أهوائهم، لتجنب كثرة الكلام، كي يسلم من عنت أو خطب .

(٣) إن الرجل المعجب بنفسه يظهر إعجابه بنفسه بوسائل كثيرة، وإذا منع من بعضها استحدث أخرى، فهو يظهره بضحك أو ابتسامه أو سخره أو غير ذلك من الوسائل المتنوعة. ومهما كان الامر الذي حرّكه الى الضحك أو الابتسام بعيداً عن موضوع إعجابه بنفسه، فإنه يُظهر في ضحكه أو ابتسامه إنه مسرور بنفسه راضٍ عنها، معجب بها، والرجل الذي قد يرى أموراً كثيرة في الحياة تستحق الضحك والسخر، ولكن الحكيم إذا تدبر ما سوي الحياة ومشاقها وآلامها وعجز الانسان فيها مهما كان قادراً وصوله القدر . إذا تدبر كل هذه الأمور، منع نفسه من السخر بقدر ما يستطيع منع نفسه .

(٤) مما يدل على عجز الناس أن كثيراً منهم إذا واجههم الناس بعيوبهم يتحملون العقاب على تلك العيوب، ولكن إذا حاول محاول أن يرغمهم على مزايلتها ومباعدتها ضاقت صدورهم، فهم يفضلون أن يُعاقَبُوا، وأن يظلموا عليها إذا لم يستطيعوا دفع الوصف بها أو دفع العقاب. وهذا يظهر في حياة الصغار كما يظهر في حياة الكبار .

(٥) من الغريب أنك تجد في بعض الأحياء شبيهاً يتفق أنك لا تكاد ترى فيهم موضع نقص يصلحهم، ولكن اندفاعهم مع دافع الشباب إلى مجارة تيار الناس يجعلهم كالسفينة التي تتقاذفها الأمواج، فهذا الدافع هو أخوف ما يخاف عليهم، ولا سيما أن الشباب مندفع بطبعه، وأنه بالرغم من مظاهر ثقته بنفسه كثيراً ما يخفي تحتها قلة الثقة بصيرته التي لم تكتسب بعد من تجارب الحياة، فينقاد لتيار الناس ولعدوى خصالهم وأعمالهم بسبب ذلك .

(٦) من الناس من لا تتفق طباعه وأية بيئة أو مكانة ، ومن أجل ذلك ينشأ ذلك الصراع الخفيف في النفس الذي يضيع الحياة سدًى ، ويقضي على مسراتها ، ولا يقتضي إتفاق المرء والبيئة أن ينقاد ذلك الانقياد الجارف الذي حذر منه في النظرة السابقة .

(٧) ليس من السهل أن نصيب العدل في قدر فضل الساعة التي نحن فيها ، فإذا كانت خيراً أوجبت فرضاً ، وإذا كانت شراً حملتنا ثقلًا وهماً ، وإذا كانت لا خيراً ولا شراً كانت مللاً وسأمًا ، والنفس تميل إلى دفع كل هذه الأمور عنها وإبعادها حباً للراحة ، وخلصاً من المشقة في الحالات الثلاثة إلا من شذ في النفوس غير المسوقة بمبدأ أو وم أو إيمان أو إحساس شديد .

(٨) إن الحق والباطل ينبعان من منبع واحد في النفس ، وكثيراً ما يكونان متصلين فيها اتصالاً قليلاً أو كثيراً . ومن أجل ذلك ينبغي الحذر إذا أردنا محو الباطل من محو الحق معه .

(٩) مما يدعو إلى الأسى أن الناس يزهدون في الحق لا لأمرٍ إلا لأنه معروف بملول مألوف ، والآلة تبعث الملل ، وهم لا يفطنون إلى أنه بالرغم من أنه معروف ، لا يستطيعون تطبيقه في الحياة وإنجازه وتحقيقه ، فهم يشق عليهم في العمل وإن كان لا يشق بعبء في الفكر - ولعل هذا أيضاً من بواعث الزهد فيه مادام يصعب ويكلف النفس الماء ومشقة .

(١٠) إذا بدأ الإنسان يعمل قيد ضميره بالعمل وضروراته ، أما إذا تريت وجعل يفكر فإنه يعطي لضميره فرصة لاستعادة حريته - هذا إلا إذا كان التفكير في تهيئة الأعداء التي تسوغ عمله ، فمثل هذا التفكير لا يعطي ضميره حريته .

(١١) إذا أصغيت إلى إنسان ، فإنه قد يكون مخطئاً مخدوعاً ، وإذا أصغيت إلى أناس كثيرين ، فإنهم كذلك قد يكونون مخطئين مخدوعين . ومع ذلك فإن كثرتهم قد توهمك أنك أصبت الصواب في قولهم ، وأكثر الناس يحكمون بضغط حكم من حولهم من الناس من غير فحص وتقدير لذلك الحكم ، بل إنه مهما حاول الإنسان التخلص من أثر قول من حوله وحكمهم يجد مشقة أو استحالة .

(١٢) إذا استحسن الناس مبدأً أو رأياً في الحياة واعتنقوه لا تلبث محاسنه مع مضي

المن أن يزول . وتظهر وتعظم أضراره ومفاسده من سوء الأخذ به ، فإذا استفحل ذلك حاول الناس القضاء عليه ، ولكن عند ما يقضون عليه يقضون على النظام الذي لا تستقيم حياتهم إلا به ، فتعم الفوضى حتى يضطروا إلى إعادة النظام على أساس جديد أو على الأساس القديم ممزوجاً بقليل من التجميل والتحسين . وعلى ذلك فالجهود التي يبذل في سبيل التغير والإصلاح ، أكثر من التغير والإصلاح إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر لا إلى المسميات .

(١٣) معرفة الخطأ أسهل من الوصول إلى الصواب ، فليس كل معرفة للخطأ تؤدي إلى الصواب ، فإن الخطأ يوجد على سطح الأمور ، أما الصواب المجهول فلا يستطيع كل إنسان البحث عنه . ومع ذلك فإنه بعد تعذر معرفته إذا عرفه الإنسان كانت له نفاة الأمر المتوقع ، وبهتة الأمر المعروف المنسي ، مع أنه لم يكن معروفاً ولا منسياً .

(١٤) إن محاولتنا أن نضع أنفسنا موضع الرجل الذي يخدع نفسه بأنصاف الحقائق وأجزائها ، أشق على العقل والنفس من فهم الرجل الذي كل فكره خطأ .

(١٥) إذا كان الفكر والمشاهدة مصحوبين بالرغبة في اعتقاد السوء ، صرفتهما تلك الرغبة عن تبين أعماق الحياة فلا يصلان إلا إلى سطح الأمور . وهو أمر صحيح في العلم ، كما هو صحيح في الأدب ، فإستطاع الشاعر العالمي (شكسبير) مثلاً أن يفصح عن حقائق نفوس من يصف من الناس حتى حقائق صفات الأشرار منهم ، إلا بأن يضع نفسه مكانهم كي ينظر إليهم بالعطف ، فيستطيع أن يستخلص حقائق نفوسهم ، وهو قلماء يشد في ذلك إلا في قصصه الأقل جودة .

(١٦) اننا نستطيع أن نخفيل مناقضة لنا من غيرنا ، أما إذا أتت المناقضة لنا من نفسنا وألحت ، كان كل ما نستطيع عمله أن نصحج تلك المناقضة أو أن نصحج نفوسنا ، ولما كان نصحج ميل النفوس أمراً عسيراً ، فإن النفس تحتاط حتى لا تتقحم عليها مناقضة لها من نفسها ، وللنفس وسائل عديدة في هذا الاحتياط .

(١٧) ربما أصابت المصائب العامة أو الخاصة انساناً قوياً ، فلا يكون وقعها أشد ولا أثرها أعظم من وقع المدبرة وأثرها في أعواد حبات الحنطة ، فإنها تنزع الحبات ، ولكن تلك الحبات لا يهتمها أنعود فتزرع كي تستبث محصولاً جديداً أم تؤخذ فتطحن فتصير غذاء وقواماً . وكذلك ما تستبثه المصائب من الرجل القوي العاقل الرشيد من الأفعال والأقوال

تكون دائماً صلاحاً لنفسه، يستدرك به فارط أمره أو صلاحاً للناس. وبالعكس ذلك ما تستبعثه من الرجل الآخرق أو الضعيف، وهذا مثل أعلى قما يصيبه إنسان، ولكنه إذا كان دائماً نصب عينيه، ربما أصاب بعضه إذا كانت نفسه مؤاتية له

(١٨) إننا نرتاح للأموال الوسطى، ونقبل على من كانت ملكاته في حدودها لأننا نأنس بمخالطة من هو أقرب إلينا منزلة وشبهاً، وبمعاشرة من يشاكلنا ولا يكلفنا مشقة الارتفاع فوق الأمور الوسطى وهذا من أسباب رواج شأن أصحابها.

(١٩) إن الكفاح بين القديم الموجد، وبين الإصلاح والتجديد، كفاح دائم أبداً. وكل نظام إذا اعتوره الفساد دَفَعَ قهراً إلى ضده. وهذا مشاهد في الأدب كما هو مشاهد في الحياة عامة، مثل النزاع بين أصحاب نظرية امتلاك الضياع الكبيرة، وأنصار نظرية تأميم الأرض أو الكفاح بين أنصار نظرية حرية التجارة وأنصار حماية المنتجات المحلية. وهذا الكفاح على تعدد مظاهره كفاح معروف من قديم الزمن.

(٢٠) الحرية المطلقة أمرٌ غير مرغوب فيه، فلا عيش ولا صلاح للناس معها لأن الناس إذا تحرروا من كل القيود تحرروا أيضاً مما يمنهم من الخطأ، ومما يردعهم عن الشرور. وهم إذا طلبوا الحرية المطلقة، انما يطلبون نظاماً جديداً وقيوداً جديدة ولا يعرفون خطر طلب الحرية المطلقة إلا بعد أن يُسكروا بنارها، ويصططلوا الويل منها، وبعد أن يعموا في الأخطاء الناشئة من الإفراط أو التفريط.

(٢١) السعيد هو الذي يعمل ليخلو من هم الحياة وقلقها. فإذا لم يُؤدِّ العمل لجمع المال إلى الهم والقلق كان من عمل السعيد. أما إذا أدَّى إلى الهم والقلق لم يكن العمل. لجمع المال طريق السعادة، بل طريق الشقاء فليست الثروة أن تكون ذا مال كثير، بل الثروة أن تخلو نفسك من توقع الحاجة، ومن خشية الفقر، فمن استطاع أن يخلي نفسه من هذه الخشية لم يكن فقيراً وإذا لم يستطع كان فقيراً.

(٢٢) كل عمل يراه الرجل الضيق الذهن حرفة أو صنعة أو مهنة، يراه الرجل العظيم فناً جميلاً، فهما كان خادماً لحرفته أو صنعته ملزماً لها، فهو خادم لقن جميل. ومثل هذه الخدمة واجبة على كل إنسان سواء كان كبيراً أم كان صغيراً في مقامه ومرتبته. وإذا عمل الإنسان عملاً واحداً بصدق وإتقان، كان عمله مرآة يرى فيها صورة كل ما يمكن عمله بصدق وإتقان.

(٢٣) لكل إنسان عمل يشبه طبيعه وطريقته، فإذا حاول الإنسان أن يعمل ما ليس في طبيعه ونفسه أخل ولم يحسن، ولا ينبغي أن يُطلب من الرجل عمل ما لا يشبه طبيعه

ونفسه، لقد طلب مني أناس أن أنظم قصائد إثارة البغض، فكيف أصنع ذلك وليس البغض من طبعي .

(٢٤) لا شيء يدعو إلى التزام جادة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس، والالتزام ما يلتزمونه، ولا شيء أدعى إلى ما يشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التي يحياها الناس، ومن الخروج على فروضها ونظمها .

(٢٥) التجارب والخبرة لا جد لها، أما النظريات فإنها محدودة بحدود العقل . ومن أجل ذلك كثيراً ما يعود الناس إلى نظرية بعد نبذها وتركها إذا ازدادوا خبرةً وتجارباً .

(٢٦) إن أغلاط المرء في الحياة قد تكلفه عناء كثيراً، وتوقع به ضرراً بالغاً، ومع ذلك لا يستطيع أن يثق أنها استنفدت كل عواقبها، فإنها قد تكون لها عواقب قصصيات تطارده بعد أن يظن أنه قد عوقب عليها عقاباً كافياً — ومع ذلك فالشبان خاصة يندفعون إلى أمثال تلك الأغلاط، ولا يعرفون ما هو مخبأ لهم، كما قد لا يعرف ذلك الكبار .

(٢٧) في الفكر كما في العمل ينبغي معرفة حدود ما يستطيع الوصول إليه كي لا تضع جهود المرء سدى، ومع ذلك ينبغي أن يثار المرء على اعتقاد إمكان فهم المجهول الذي لا يستطيع فهمه، وإلا قصّر في أمور كثيرة في بحثه، وكان من الجائز أن يصل بذلك البحث إلى كشف كثيرة ما كان يتوقعها .

(٢٨) إنك إذا أردت من إنسان أداء واجبات ومنعت عنه مزايا يستحقها لأدائها، فاعلم أنك ستدفع ثمناً غالياً لهذه الخطئة، ولا تحسبن أنك اقتصدت، والناس إذا أرادوا الغبن قالوا لا شكر على واجب .

(٢٩) إن الذين عاشروا الأطفال يعرفون أنه إذا زاد التأثير عليهم عن حد معين لا يخفق هذا التأثير في إحداث رد فعل يؤدي إلى مخالفة وعناء . ومن أجل ذلك كانت حياة الصغار مملوءة بالتسرع في الحكم على الأمور بأحكام غير ناضجة . ولا بد أن يمضي زمن حتى يستطيع المدرس أن يصحح أثر هذا التسرع وهذا العناء — والمدرس الفلسطيني هو الذي يستطيع أن يعرف حد السيطرة الذي يؤدي بعده التأثير إلى المخالفة والعناد . ويعجبني خطة بعض المدارس الإنجليزية التي تكلل أكثر أمور التلاميذ إلى التلاميذ أنفسهم، حتى خصوصياتهم وحتى حفظ النظام، فينشأ التلميذ وهو يشعر بالمسؤولية، كما إنه لا يحس تلك السيطرة القاهرة التي تؤدي إلى العناد .

(٣٠) إذا أراد الإنسان أن يركن إلى خبرة غيره، ينبغي أن يتذكر أن ذلك الأمر المختبر قد أصبح بينه وبينه حاجزان: حاجز نفسه وحواسه، وحاجز نفس من يركن

إلى اختباره، وقد تتغير الحقائق من إحدى الناحيتين .

(٣١) إذا فقد الانسان الفهم الاسامي العام ظن أن كل ما يشتهي أمر ضروري وإن كل ما يسره أمر نافع، فيقيس الأمور بمقياس باطل .

(٣٢) لا يستطيع الانسان أن يعيش من غير سلطة مهيمنة على حياته، ومع ذلك فإن هذه السلطة فيها من الخطأ قدر ما فيها من الصواب والحق . فانها تحافظ على أمور كثيرة ينبغي أن تزول، وتسمح بزوال أمور كثيرة ينبغي أن تصان، فهي سبب عدم تقدم الانسان .

(٣٣) بعض الناس كانوا يكونون على جانب كبير من النبل والشرف والصدق لولا أنهم ذكروا مرة أمراً مكذوباً أو باطلاً، ثم أرادوا أن يسوغوا أنفسهم ويعذروها بأن يعيدوا ذكره مراراً كي يصدقهم الناس فتدلسى بهم هذه الغريزة بدل أن تزكيهم وترفع من شأنهم .

(٣٤) لا يمتاز الانسان بالفضل على خصومه، اذا لم يستطع بالفضل معرفة فضلهم، والانسان لا يستطيع أن يشغل نفسه بكل انسان، ولا أن يعيش مع كل انسان، فينبغي إذاً أن يعزّ أصدقاءه، وأن لا يكره وأن لا يضطهد أعداءه، أو من وضعهم موضع الخصوم .

(٣٥) قبل الثورة كان كل أمر مجهوداً يُطلب من الناس أدائه، وبعدها عاد كل أمر مطلباً للناس يطلبونه، وهذا يذكرني نقد (مازيني) للثورة الفرنسية إذ قال إنها جعلت الناس تنظر الى حقوقهم، والى طلب تلك الحقوق، وصرفت الناس عن واجباتهم - وربما كان في هذا القول مبالغة، إلا إذا أريد أن يكون تقديم الواجبات مبدأ عاماً .

(٣٦) الخدوع بقول غيره أو عمله إنما كان مخدوعاً، لأن في نفسه صفات مكنت الخداع منه، فالخدوع إذاً هو الذي خدع نفسه بسبب ذلك .

(٣٧) الحصاد أشق من نثر البذر في الزراعة، وكذلك في الحياة تزداد المشاق كلما قارب الانسان مقصده الذي يسعى اليه، وكذلك في الفنون كلما أتم بها الانسان وتعمقه فيها، عرف صعوباتها . وأما المبتدئ فيها غير الممارس لها، فهو أكثر اغتراراً بها وبالقدرة على التبريز فيها .

(٣٨) السعادة هي الاستسلام لارادة الله، فَتَقَبَّلْ كل ما يصيبنا كأنه ناشئ من ارادتنا .

(٣٩) مهما حرّرَ الفن النفوس، فإن أساسه عقيدة وإيمان، ومهما خالطه من الفكاكة فإن أساسه الجِد .

[للبحث بقية]

ع . ش

العناية بصحة العامل

- ٢ -

اختناق بغاز أول أكسيد الكربون

(Carbon Monoxide)

لهذا الداء أثران خطران على الانسان هما خطر الانفجار ، وخطر التسمم ، ويحصل الانفجار اذا ما تسرب هذا الغاز في مكان مغلق ، الى أن تصبح النسبة بينه وبين هواء المكان ١ الى ١٠ ، فاذا ما تواجد هب في مثل هذا المكان انفجر الغاز . واما خطر التسمم فيحدث إذا بلغت النسبة أقل من ذلك بكثير أي حوالي ١ الى ١٠٠ . واحتراق قدم مكعب من خشب في دهليز منجم راكد الهواء يكفي لتسمم من يتواجد في الدهليز لمسافة ربع ميل تقريباً ، وكل من يدخل هذا المكان يكون عرضة للوفاة الفجائية . واذا قلّت نسبة الغاز في الهواء حدث التسمم البطيء ، وغاز أول أكسيد الكربون له تأثير ضار على جزء المخ السفلي قد ينتهي أحياناً بتلفها .

وكمية قليلة جداً من هذا الغاز اذا امتزجت ببطء في أحد الأماكن لدرجة يتعذر شمها كافية لإحداث الصداع . والتهاب الحلق ، وضعف عام عند كل من يتواجد في ذلك المكان ، يقظاً كان أو نائماً . وكثيراً ما يتوفى أناس في بضع ساعات من تسرب مقادير صغيرة جداً من هذا الغاز في حجرة نومهم على الرغم من أن هذه المقادير لا تنفجر لضآلتها . وقد حدث أن تسمم أفراد عائلة من غاز أول أكسيد الكربون تسرب الى منزلها من ماسورة غاز الاستصباح بالشارع نتيجة لانسداد مسام الشارع الملاصق من جراء تغطيته بالجليد . وكان بحجرة نوم هذه العائلة موقد مضاء بالبتروول ، ومع ذلك لم يحدث انفجار ، بل حدث التسمم المذكور فقط .

وغاز أول أكسيد الكربون يحدث التسمم باتحاده مع هيموجلوبين كريات الدم الحمر

بعد طرده الأوكسيجين منها ، وقابليته للاتحاد مع الهيموجلوبين تفوق قابلية الأوكسيجين بما يعادل ٢٢٠ الى ١

ويحدث التسمم من غاز أول أوكسيد الكربون بنتيجة عملية الانفجار في المناجم (Blasting operation in mines) اثناء صهر الحديد (Iron Smelting) . وكل انفجار طارىء داخل مناجم الفحم يصحبه تولد غاز أول أوكسيد الكربون .

أعراض التسمم البطيء . بأول أوكسيد الكربون

دوخة . عدم أوزان المشي . صداع . طنين بالأذنين . إحساس بالانقباض بالصدر . أما أعراض التسمم الحاد فهي دوخة فجائية ، ثم اغماء وارتخاء عام بالعضلات * (الإسعاف) — يوضع المريض في مكان هادئ . ويزال الزبد أو اللعاب من الفم . ويجذب اللسان إلى الأمام إذا كان ذلك ضرورياً . ويدفأ الجسم بالبطانيات وزجاجات الماء الساخن . ويعمل له التنفس الصناعي وذلك برفع الذراعين إلى أعلى رفعا تاما لمدة ثانيتين ثم خفضهما إلى جانبي الصدر مع ضغط على الجانبين مدة ثانيتين أيضا . وتكرر هاتان العمليتان خمسة عشر مرة في الدقيقة الواحدة . ويشم المريض غاز الأوكسيجين مع ٥ ٪ غاز ثاني أوكسيد الكربون ، وهذا المزيج محضر داخل اسطوانات ويعطى بكمامة .

وإذا تعذر ذلك يمزج غاز ثاني أوكسيد الكربون من اسطوانة أخرى مع غاز الأوكسيجين المنبعث من اسطوانة الأوكسيجين بالنسبة المطلوبة ، وذلك بوصل أنبوبي الغازين في أنبوبة واحدة وإرسال هذه الأنبوبة في أنف المريض . والقاعدة أنه ما دام القلب ينبض فهناك أمل في إنقاذ الشخص . وإذا ما استعاد المريض تنفسه يستمر في استنشاقه غاز الأوكسيجين النقي لمدة ثلاث ساعات على دفعات صغيرة يعطى بينهما الطعام .

وأحيانا يعطى المريض حقنة أتروين بـ ١/١٠ قحمة تحت الجلد . ولا مانع من تكرارها إذا ما تطلب الحال . ويعالج الاغماء بمحلول الملح (١ ٪) تحت الجلد . أو بنقل دم سليم إلى المريض . ويوضع المريض في السرير بوضعية أيام . وقد يعقب التسمم جنون .

* (الاختناق من أسباب أخرى) — يحصل الاختناق من أسباب أخرى غير استنشاق غاز أول أوكسيد الكربون كما هو مذكور أعلاه والاختناق معناه منع وصول غاز

الأوكسيجين إلى الدم . وعليه فالفرق الذي يمنع اتصال الرئتين بأوكسيجين الهواء يحدث اختناقاً . كما أن انسداد مجاري التنفس من جسم غريب في الداخل ككتلة طعام أو تورم من التهاب أو ورم مرضي يحدث نفس النتيجة . كذلك الضغط من الخارج على العنق أو على الصدر كما يحدث من وقوع أحجار على صدر عامل يمنع تمدد الرئتين فيحدث اختناقاً . وما يقال عن غاز أول أكسيد الكربون يقال أيضاً عن حامض السيانيك المتصاعد من تعدين الذهب واستخلاصه من الشوائب، وأيضاً الطلاء بالذهب نتيجة لاستعمال سينور البوتاسا أو الصودا ، كذلك غاز الماء (Water gas) إذا تسرب في حجرة مغلقة ، ويحدث أحياناً ان غاز الكبريتوز (Sulphurous acid) الناجم من حرق كبريت العمود وغاز النشادر وغاز الكلورين الناجم من المسحوق المبيض (Bleaching Powder) — كل هذه تلهب الحنجرة من الداخل وتحدث تورماً لها ، ثم انسداداً فاختناقاً . وهناك غازات أخرى مثل أكسيد الأزوتوز (Nitrous Oxide) (وهو الغاز المضحك) والكلورفوم والايثير تحدث أحياناً تأثيراً سيئاً على مركز التنفس بالمخ فتشله وتوقف التنفس .

وأعراض الاختناق في هذه الحوادث أبطأ منها في التسمم بأول أكسيد الكربون . وهي غالباً تبدأ بسرعة النبض وعمق التنفس (Gasping) ، ثم ارتفاع في ضغط الدم وصداع نتيجة لذلك ، وزرقة في الجلد من قلة تأكسد الدم ، ثم تشنجات (هي في الحقيقة محاولة لاستنشاق الأوكسيجين من الهواء) . وفي هذه الحالة تتمدد الأوردة وتوضح . وفي حالات التسمم بغاز أول أكسيد الكربون لا تحصل تشنجات . بل تنتهي الحالة بالوفاة في هدوء وسكون .

والأوكسيجين غاز يباع في اسطوانات تحوي أحياناً ١٠٠ قدم مكعبة من الغاز مضغوطاً . وفي أعلى الاسطوانة محبس للسماح للغاز بالخروج في أنبوبة تدخل زجاجة بها ماء دافئ لرفع حرارة الغاز ، وهناك تبدأ أنبوبة أخرى تدخل أنف المريض أو تدخل في كامة توضع فوق أنف وفم المريض .

وتعمل أحياناً خيمة حول المريض يدخل فيها غاز الأوكسيجين ولهذه الوسيلة مزية إمكان المريض من استنشاق الأوكسيجين كل وقت .

أمراض التعدين

الذهب يتواجد هذا المعدن عادة في صخور (quartz) وبين الرواسب الرملية في مجاري الأنهر . ويفصل المعدن عن الرمال باستعمال تيار المياه الذي ينقل الرمال ويترك الذهب في قاع المجرى . وبعد جمع هذا المعدن بالطريقة المذكورة يحضر نقيًا بعدة طرق أكثرها استعمالاً هي مزجه بملح سيانيد البوتاسيوم أو الصوديوم فينجم سيانيد الذهب، وهذا يفصل بالتحليل الكهربائي (Electrolysis) حيث يتراكم الذهب على القطب السالب Cathode .

ويتواجد الذهب في منجم السيد بقط ، ومنجم السكري في مرسى عالم ، ومنجم الذهب في البرامية بين القصير وادفو . فأما منجم السيد فتديره شركة مساهمة منذ عام ١٩٤٧ واستطاعت ان تحصل منه في سنة ١٩٤٨ على ٢٩٥٠ أوقية بلغ ثمنها ٦١٠٠٠ جنيهاً . وبه ٣٢٥ عاملاً . وأما منجم السكري فقد استخرج منه ٢٥٧٦٣ أوقية من الذهب الخالص منذ سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٦ . وقد بيعت بمبلغ ١٢٧٣٥٩ ج. على حين بلغت المصاريف في هذه المدة ٢٩٦٤٢٠ جنيهاً . وأما منجم البرامية فقد استولت الحكومة عليه في أوائل الحرب العالمية الأخيرة من مديره الايطالي ولم تقم بإدارته

ويستخرج الذهب بثقب الصخور أولاً ، ثم نسفها بمادة جليجنيت (Gelegnite) وبعدها تنقل في عربات تجرها الأيدي . وكان هناك خطر ان يلان زمان هذه الصناعة . أولها : التسمم بالسيانيد (سيانيد الصوديوم الذي يستعمل لاذابة الذهب من فتات الصخور) لكن معرفة طريقة التسمم به حددت كثيراً من حوادثه . وثانيهما : التسمم بالزئبق الذي يستعمل كالسيانيد في استخراج الذهب من فتات الصخور . وبالنسبة لعمق مناجم الذهب فإن الضغط عليها من الخارج يكون شديداً فتتداعى جدرانها ويسقط تحتها عدد من العمال . وقد أدخلت تحسينات كثيرة في صلب المناجم وطريقة فصل الذهب .

وأهم الأمراض التي تصيب عمال الذهب هو التهاب الرئوي السلوكوزيس (Scleriosis) والدرن ، والانكلستوما ، والاسقربوط (قلة فيتامين ج)

وتمنع الإصابة بالانكلستوما برش ملح الطعام في أرض المراحيض وداخلها، ثم غسيل القاعد والجدران مرة أسبوعياً بمحلول ملح الطعام في الماء بنسبة ٢٠٪.

ويمنع مرض السلوكوزيس، الدرن الرئوي باستعمال المياه ووسائل التهوية. وعليه فيجب استعمال المياه في كل عملية تثقيب كما يجب، بل قطع الصخور قبل نقلها بالمياه. ويتجنب أيضاً رش المياه على صدر المنجم باستمرار. ووقت النسف تذر المياه في الهواء بشكل نوافير تفصل بين موضع النسف ومكان العمال، على أن تستمر هذه النوافير لحين زوال كل الأبخرة والأتربة بالغسيل. ولما كانت المياه ليست كافية لمنع ذرات الصخور التي تسبب مرض السلوكوزيس، فإن تهوية المنجم ضرورية جداً. وتعمل عملية النسف بعد ابعاد كل العمال حتى القائمين بعملية النسف (وذلك باستعمال آلات ناسفة خاضعة للتوقيت) (time fuses). والتهوية ضرورية لخفض درجة الحرارة داخل المنجم. وتعمل التهوية بوضع الشفافات عند مدخل المنجم، وإرسال الهواء تحت ضغط داخل المنجم بواسطة أنابيب (Venture Tube) وبلم وضع الترمومتر ذي المخزن الجاف والرطب (Dry and Wet Bulb Thermometre) وقياس كمية ثاني أكسيد الكربون باستمرار داخل المنجم.

ويشترط أن تكون وسائل الاسعاف متوفرة بكل جهات المنجم، وهي عبارة عن صندوق معدني يحوي الأربطة والأجهزة والعقاقير ونقالة وبطانية. الخ. وان يمرن كل موظف وعامل نبيه على استعمالها.

ويستحسن الكشف طبيياً على كل عامل قبل التحاقه بالمنجم، وإعطائه شهادة بمجودة صحته وخلوه من الأمراض. وان يعاد هذا الكشف على فترات. وان تستعمل الأشعة السينية في الكشف، وكل عامل يقل وزنه يعزل لفحصه طبيياً. ويفضل في المناجم الكبيرة إنشاء مستشفى صغير مجاور.

ويشترط في الغذاء ان يكون كاملاً، ويعطى فيتامين (ج) في مرض الاسقربوط أفرصاً أو بشكل عصير برتقال.

ولو ان تعدين الذهب لا يشمل التسمم بأحدى الغازات إلا أن جواز حصول انفجار

مادة النسف داخلية أو احتراق خشب أو خلافة، يتطلب الاحتفاظ بأسطوانة أكسجين لاسعاف الاختناق.

﴿ الفوسفات ﴾ يستخرج الفوسفات من منجم « السيد » حيث تديره شركة بلغ ما باعت منه سنة (١٩٤٨) ٢٩١٠٠٠ طن. وقد باعت في سنة (١٩٤٧) ٢٨٩٣٣٨ طناً بمبلغ ٦١٠٤٣١ جنيهاً. وفي « السباعية » بالقرب من أدفو مناجم للفوسفات تستغلها شركة أجنبية. وقد استخرج منها عام (١٩٤٨) ١٦٨٠٠ طن. والفوسفات من أهم المواد التجارية. وأهم هذه المواد هي : أولاً — المعروفة باسم الأسمدة الأوزوتية. وهذه تشمل كبريتات وازوتات النشادر، وسياناميد الجير، واليوريا، وفوسفات اليوريا. وثانياً — الأسمدة الفوسفاتية وهي التي تهمنا هنا — وهي تتواجد بشكل (capite, phosphorite, Natural phosphates) أو الفوسفات الطبيعية — رماد العظام bone ashes Mono calcic bicalcic phosphates مثل السوبر فوسفات وفوسفات العظام

وبعد استخراج الفوسفات الطبيعية تغسل وتقرز وتفتت وتنخل (Cifted)، ثم تعالج بالمواد الكيميائية، ثم تعبأ. وكل هذه العمليات يصحبها تشبع الهواء بالأتربة. وبعض هذه الأتربة مهيج، والبعض الآخر كاو Caustic للأغشية المخاطية والجلد. وهناك علاوة على ذلك أخطار الحريق والانفجار وكثيراً ما تؤثر أتربة هذه العملية على ملتحمة العينين وأغشية الأنف فتسبب في الأخيرة انثقابها. وأما ملتحمة العين فسرعان ما تتأثر من Super phosphate لما تحويه الأخيرة من فوسفات الجير وما يحدثه من التهاب الى تورم الى عتامة القرنية.

ويتحتم عمل عمليات الأتربة في آلات مقفلة بإحكام وان تكون عملية التعبئة في مكان به مخلخلات الأتربة (Exhaust) ويجب اتخاذ الحيطة ضد الحريق والانفجار وان تمنع الأتربة عن العمال باستعمال الكمامات والمناظر (goggles) الخاصة وملابس خاصة بالعمل ولبس أحذية بعنق عال وبقباقيب (Sabots) ودورات مياه كافية وحمامات من نوع (الدوش) douch

وتحضر السوبر فوسفات بمزج مادة (Tricalcic Phosphate) بحامض الكبريتيك وبذا تستخرج أكبر كمية ممكنة من حامض الفوسفوريك Phosphoric acid وهذا يعني أولاً الاهتمام ضد أخطار حامض الكبريتيك الغير نقي عادة والقابل للانفجار واحداث اختناق من غاز (Nitrous gas) وغاز الأيدروجين. وغاز (Arsinuretted gas)

وثانياً . العناية أثناء عملية تفتيت الفوسفات الطبيعية . وهذه تستخرج عادة كتلاً كبيرة ثم تفتت في حالتها الجافة، وهي عملية تحدث كثيراً من الأتربة . وكانت عملية التفتيت تعمل بالأيدي ثم استعويض عنها بالآلات الميكانيكية . وهذه الآلات ترفع كتل الفوسفات بالونشات ، ثم تنقلها الى المطاحن في مكان محكم الغلق مركب عليه (شافطة) مملوئة الغبار . وبعد الطحن ينقل المسحوق لتحليله . ومخاطر عملية التفتيت والسحق هي كالمذكرة أعلاه تحت (الفوسفات) .

أما مخاطر عملية التحليل (Disintegration) أو عملية مزج الفوسفات مع حامض كبريتيك فيصبحها دائماً تولد غازات ضارة . وكان المزج يعمل قبلاً في قنوات مكشوفة ويحدث حينذاك أثراً سيئاً على العمال والجيران . لكن الآن يعمل التحليل في ماغون كبير مغلق . وبهذه الكيفية أبعدت أخطار العملية واستفيد من الحرارة العظيمة الناتجة من هذا المزج . وبعد الفراغ من عملية التحليل هذه يصب السائل في مكان مخصوص يقع عادة أسفل مكان التحليل . وجميع الغازات المتصاعدة من السوبر فوسفات تخرج عن طريق أنابيب ، وتعالج بالكيماويات حتى تصبح غير ضارة قبل تعرضها للخارج .

وبعد الفراغ من عملية التحليل وتخزين سائل السوبر فوسفات تبدأ عملية تجفيف هذا السائل . وهنا يحصل التأثير السيء على الجلد، والغشاء المخاطي لعيون وأنوف وشعب العمال، وقد سبق الكلام على ذلك تحت الفوسفات . ويجفف السائل عادة في درجة ١٠٠° سنتجرات أو أعلى فتتعرض العمال إلى خطر السلق . وهناك يجب ارتداء ملابس خاصة، وكمامات وأحذية الخ .

وبعد عملية التجفيف تأتي عملية السحق . لأن التجفيف يخلف كتلاً كبيرة من سوبر فوسفات تحوي بعض المياه . ولذلك يجب سحق هذه الكتلة كي تجفف سوبر فوسفات تماماً . وهنا تتصاعد غازات ضارة . ولكن هذه العملية تعمل الآن في آلات محكمة عديمة المخاطر .

بعد ذلك تعبأ السوبر فوسفات وتشحن إلى الجهات المطلوب نقلها إليها . وليلاحظ أن عملية التخزين تحدث تحجراً للمسحوق مما يتطلب إعادة سحقه ونخله . وعملية السحق هذه تلبي كثيراً من الحوادث للعمال لأنها كثيراً ما تعمل بالأيدي .

الركنور حسن كمال بك

مدير عام مصلحة الصحة الاجتماعية

حجة فلسطين

ومن ذا الذي كتبها لليهود؟^(١)

موضوعي اليوم تاريخي وكل مستنداتي فيه التوراة. والتوراة كتاب مقدس يعترف به اليهود والنصارى والمسلمون. ولكن أي توراة؟ وقضيتنا الآن ما هي حجة اليهود في إدعاء أمرين: الأول: إنهم شعب الله المختار، والثاني: إن فلسطين أرض الميعاد التي وعدهم الله بها ملكاً لهم. وسندهم في هذه الملكية وتلك الدعوى هو التوراة، والنصارى يعترفون بالتوراة كما وصلت إليهم من أيدي اليهود واليهود لا ينكرون أن التوراة التي يتداولها النصارى وقد طبعوها ونشروها بعدة لغات هي ترجمة صحيحة عن العبرية للتوراة التي بين أيديهم. ونحن نحاسبهم على دعوائهم هذه بموجب توراتهم.

ومعلوم أن الانسان في كل زمان يجب أن يكون حائزاً لحجة تثبت ملكيته للعقار الذي يدّعيه لنفسه سواء كان طيناً أو عمارة أو نحو ذلك. حتى في عصرنا هذا يجب أن يكون في يدك وثيقة يسمونها «فاتورة» تثبت أنك اشتريت هذه الحلية من الصائغ فلان وإن هذه السيارة اشتريتها من التاجر فلان الى غير ذلك.

فلنر الآن ما هي حجة اليهود بأرض الميعاد التي وعدهم الله بها. وبأنهم أخصاء الله، وإن الله، أعني اللههم، هو إلههم وحدهم، وإن جميع الأمم الأخرى ليست من عباد الله. فهم محتكرو الله دون سائر الأمم، استغفر الله. هم محتكرو يهوه. وبهذا الاختصاص أحل الله لهم أملاك الأمم الأخرى وأرزاقهم وأمتعتهم.

فأما هم موسى أن يقود بني اسرائيل من مصر الى فلسطين كان يمنيهم بملكوت الله في فلسطين، وإنه لهذا يقودهم إلى هذه البلاد حاسباً إياها أرض الميعاد التي خصها الله بهم. إن هذه الأرض ملئت جميع بني اسرائيل بحسب يقين اليهود. وكان موسى يفرهم بأن هذه الأرض تفيض لهم لبناً وعسلاً (أنظر سفر الخروج الاصحاح الثالث عدد ٦ إلى ١٠)

(١) محاضرة القاها العلامة الاستاذ تولا الحداد في النادي الشرقي بالقاهرة في ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨.

وإن الله يدفعها لهم منها فيطرد الكنعانيين والأموريين واليبوسيين والحثيين والقرزيين والحويين والصيدونيين إلى آخر من فيها من الأمم الأخرى التي ليست من شعب الله (أنظر سفر الخروج الاصحاح ٣ عدد ١٧). وقد حلل لهم أراضيهم ومواشيهم وبيوتهم وأثاثهم وفرشهم ولحفهم وآيتهم. كذا كان موسى وهو يقودهم من مصر يزين لهم الثروة والغنى والسعادة.

ولما عزموا على الرحيل أوعز الله إليهم أن يستمروا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين (أنظر سفر الخروج الاصحاح الثاني عشر العدد ٣٥ و٣٦). وفي اليوم التالي رحلوا وتلك الأمتعة معهم كغنيمة باردة.

يا الله! ما هذا إلا إله الذي يوعز إلى قوم أن يسلبوا قوماً آخرين؟. أليس جميع الأقوام هم من خلائقه؟. وقصة فرار الاسرائيليين من مصر وإقامتهم في سفح جبل سينا مدة ٤٠ سنة إلى أن أتى الوقت المناسب للزحف إلى أرض الموعد، هي قصة معروفة جيداً عند كل منا.

ولما وصلوا إلى هدفهم كان موسى قد شاخ وهو في أرض عربات مواب، وصعد إلى جبل نبو إلى رأس العسجة حيث أراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان وما يليهما. قال له: هذه هي الأرض التي أقسمت لأبراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها، قد أربك إياها بمينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر (أنظر سفر تثنية الاصحاح ٣٤ - ١ إلى ٦) لأنك أنت وأهلك هرون خنتاني في وسط اسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية جنين إذ لم تقدما في وسط اسرائيل (تثنية ٣٢ - عدد ٥٠ و٥١). ومات موسى في أرض جلعاد، ولم يدخل أرض الميعاد. ودخل شعب اسرائيل أرض الميعاد بقيادة يشوع خليفة موسى.

وحين كان الاسرائيليون في برية سينا أمر الرب موسى أن يصنع خيمة عظيمة كهيكل لبعده فيه شعبه. ووصف له كيفية صنعها وأماكن الذبيحة فيها. وجعل في صدرها الأقصى مكاناً لتابوت العهد الذي وضع فيه اللوحين الحجرين اللذين كتب الرب عليهما بأصبعه وصاياه العشر. وسمى ذلك الصدر قدس الأقداس. ثم أملى عليه الرب المرة بعد المرة شرائعه. وكان موسى يذيعها على الشعب. ولم يكن يكتبها لأن الكتابة في ذلك العهد لم تكن كالكتابة اليوم، فكان مستحيلاً أن يكتب بها شرح طويل. وكان الله منذ استقدم إبراهيم الخليل من اور الكلدانيين منذ ٢٣٠٠ سنة قبل المسيح يمتسي نسله بأن يجعلهم

كنجوم السماء في الكثرة (أنظر تكوين ١٥ - ٥) وكتراب الأرض (١٣ - ١٦) وانه يعطيهم الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً (خروج ٣ - ١٧) وها قد مرَّ على هذا الكلام أكثر من ٤ آلاف سنة منذ ابراهيم الى الآن وعدد بني اسرائيل لم يزد على ١٥ مليوناً . فهل كذب الله عليهم ؟ حاشا . بل الحقيقة إنه لم يعد هذا الوعد لأحد .

كل هذا كتَّيب في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وهي أسفار التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية . ولهذا سُميت هذه الأسفار الخمسة بأسفار موسى الخمسة . وكان المعتقد ان موسى كتبها بيده لولا أن خبر وفاته مذكور في آخرها . ولا يعقل أن موسى نعى نفسه وكتب خبر وفاته بيده . ويفسر المفسرون هذا أن يشوع كتبها أو أمَّ بها السفر الأخير . والحقيقة انه لا موسى ولا يشوع كتبها لانه لم يكن في زمانها كتابة وإنما كانت لعهدهما الكتابة الهيروغليفية التي كانت محصورة بالكهنة المصريين . وإنما هذه الأخبار كتبها اليهود بعد رجوعهم من سبي بابل ، وبين المهدين سبعة قرون كما سيأتي بيانه فوعد الله لابراهيم ولموسى وجميع بني إسرائيل انه سيملكهم فلسطين مُسنداً الى التوراة التي في أيدي اليهود الآن ، واسفارها الخمسة الأولى . أعني أن الحجة التي في يد اليهود بامتلاك فلسطين هي في هذه الأسفار . فلنر من كتب هذه الأسفار . اليهود يزعمون أن كاتب هذه الحجة موسى بأمر من الله ، أو من الرب ، وإنما مسجلة في التوراة تسجيلاً رسمياً . ولكن أي توراة . فلنبحث في هذه الدعوى :

خرج الإسرائيليون من مصر سنة ١٢٥٠ قبل المسيح . هذا بحسب ما يستنتج من توراتهم ، في ذلك العهد كان أرقى نوع من الكتابة هو الخط الهيروغليفي المصري لعهد الدولة المصرية العشرين التي استمرت من سنة ١٢٠٠ الى ١١٠٠ قبل المسيح . وكانت الكتابة الهيروغليفية كتابة تصويرية . أي كانت الأسماء تصوّر بمسمياتها . فاذا أرادوا أن يكتبوا بيتاً رسموا بيتاً ، أو شمساً رسموا الشمس ، أو عجلاً رسموا العجل ، وهكذا دواليك . وكانوا يستعمرون للعاني أحياناً رسوم الأشياء ، فاذا غنوا نوراً أو لمعاناً رسموا شمساً أيضاً . وعلى اللبيب أن يفهم بالقريئة . ومع ذلك لا يفهم اللبيب ، بل كان سلفه يعلمها إياها . وهكذا كانت كتاباتهم تنتقل بين الكهنة من السلف إلى الخلف بالتلقين والتعليم ، ولما في كتابتها وحفظها من المشقة لم يكتب بها إلا نقشاً في ألواح حجرية ، أو على مسلات ، أو جدران ، أو لحود قبور . ولذلك لما أراد موسى أن يتلقى وصايا الله العشر صعد الى

«جبل سينا» ونحت حجرين وبقي عدة أيام هناك إذ كتب الله عليهما بأصبعه وصاياه للشر. هذا إن صحت الرواية أن الله أصبعين يكتب بهما. والحقيقة أن هذه القصة من أولها إلى آخرها ملفقة. وما كتبت إلا بعد سبعة أو ثمانية قرون من خروج بني إسرائيل من مصر كما سنبينه فيما بعد.

جميع الكتابات التي تلقيناها عن مصر والمصريين في الزمن القديم لم تكن تتجاوز صفحات ألواح حجرية أو جدران أو مسلات حتى الدولة العشرين وما بعدها ببضعة زرون. وفي سنة ٩٩٦ قبل المسيح جاءت الدولة الليبية إلى مصر وحكمتها. وعن طريقها طرق اليونان والرومان إلى مصر. فتطورت اللغة والكتابة بعض التطور ونحوأت الهيروغليفية إلى كتابة تسمى هيراتيكان يمزج بها شيء من الأحرف الصوتية (فونتيك) التي يعطى بها لكل مقطع صوت حرف. ويقال أن هذا الاصطلاح بالكتابة والتعبير كان من اختراع شخص فينيقي يسمى قودموس، وبقي الحرف الهيروغليفي معمولاً به حتى القرن الثالث قبل المسيح، إذ تغلب عليه الحرف الشعبي المسمى ديموتك الذي تغلب فيه الحرف الصوفي.

وفي آشور وبابل كانت الكتابة تسير الهويناً كما كانت في مصر تماماً. وكانت الكتابة على الحجر وعلى الآجر إذ كان يشوى بعد الكتابة.

لما صارت الهيروغليفية تتطور وتتحول إلى هيراتكان صار يُزج فيها بعض رسوم تدل على حروف صوتية. وصار يمكن أن يتركب فيها بعض أسماء وكلمات. ومنذ الدولة الخامسة والعشرين أي دولة البطالسة التي كانت قبل المسيح بنحو ٣ أو ٤ قرون ابتدأت الكتابة الشعبية تعم (ديموتك).

وحاصل القول أن الكتابة لعهد موسى لم تكن إلا رسوماً، وكانت مقتصرة على بضعة رمزين من الرسوم. وكانت محصورة في الكهنة. وكتابة كهذه لا تسع خمسة أسفار أي خمسة كتب مطوّلة يدون فيها موسى تاريخ شعبه وشرائعه وأسماء قبائله وأساطيلها إلى غير ذلك من مطولات التاريخ. ولم يكن في ذلك الزمن ورق ولا بردي ولا رق غزال أو رق من جلود الحيوانات الصغيرة لكي يكتب عليها. ولهذا كتب الله وصاياه العشر على لوحين من الحجارة إن صحت الرواية. إذن من غير شك لم تكتب أسفار موسى الخمسة في عهد موسى حتى ولا بعد موسى بمئات من السنين لأن الكتابة الهيروغليفية لا تحتتملها وموسى لم يكن يعرفها.

إذن من كتب الأسفار الخمسة وسائر أسفار التوراة ؟ ومتى كُتبت ؟ هنا بيت القصيد
بعند أن استتب اليهود في أورشليم لعهد الملوك الأول جعل سليمان يبنى الهيكل
المشهور حسب تصميم الخيمة التي وضعها موسى وهو في بركة سيناء أو بالأحرى حسب
تعليمات كان يتلقاها موسى من الله حين صنع الخيمة . فصنع سليمان الهيكل حسب وصف
الخيمة ، كما هو في سفر الملوك الاصحاح السابع فما بعد . وكان بناء هذا الهيكل في سنة
الأربع مئة والتمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر (أنظر أول الاصحاح السادس
من سفر الملوك الأول)

وكان سليمان يسرف في بناء هذا الهيكل ، فما خلّس ولا ترك ذهباً وفضة في مملكته
إلاّ استعمله لهذا الهيكل . ولا ريب أنه بنى قصره وكبار رجاله بنوا قصورهم بمثل هذا
البدخ . فكان هذا البدخ مشوّقاً لملوك بابل وأشور أن يغزوا فلسطين من حين إلى آخر
لكي يهبوا هذه النفائس .

وغزا نبوخذناصر ملك بابل أورشليم أربع مرات ، وفي كل مرة كان يسي أهلها
وينهب ما يشاء . وآخر مرة غزاها ودمر الهيكل وسبي جميع أهلها . وسمي هذا السبي
بسبي السبعين . وكان النبي أرميا ينصح للملك صدقيا (ملك إسرائيل) أن يسلم المدينة
والهيكل لنبوخذناصر (أو بختنصر) لكيلا يهدم الهيكل . ولكن صدقيا لم يسمع نصيحة
أرميا فقبض عليه نبوخذناصر وقوّر عينيه وقتل إبنه وعفا عن أرميا .

وكان أرميا قد شعر أن نبوخذناصر إذا دخل أورشليم فلا بدّ أن ينهب الهيكل
ويدمره . فأسرع هو وبعض اللاويين واستخرجوا تابوت العهد وفيه اللوحان الحجران
وبعض الأواني الثمينة وحملوها إلى مغارة في جبل نبو في أرض مواكب قبالة أريحا ودفنوها
هناك وعادوا ولم يعودوا يعرفون أين دفنوها . ولكن أرميا قال لهم متى عاد بنو إسرائيل
إلى أورشليم من سبيهم هداهم الله إليها ^(١) .

وفيما كان كهنة اليهود في أسر بابل كان دانيال معهن وهو زعيم كهنتهم فكانوا
يطلعون على أساطير البابليين والآشوريين ويدرسون شرائعهم وتقاليدهم . وكانت حينئذ

(١) بعد الحرب الكبرى الأولى جاءت بمئة أثرية من أميركا برئاسة علامة أثري يسمى الدكتور فرر
(والغالب أن البمسة يهودية) جاءت إلى فلسطين للبحث عن تابوت العهد ، فإذا وجدوه حققوا وعد أرميا
أن الله يرشدكم إلى التابوت متى عادوا إلى أرضهم ، وعلموا أن ميعاد العودة إلى أرض الميعاد قد حان
فيبدلون جهدهم في العودة ، ولكنهم بقوا هناك يبحثون ويتقنون فلم يبقوا على أثر . والدكتور فرر يزعم
أنهم حصروا الأرض التي فيها التابوت في كيلو متر مربع . وبعد بضعة سنين عادوا خائبين ، على أن يجهزوا
جدة أخرى أغنى وأقوى ، ولكنهم لم يودوا حتى الآن . ولا بعد أن يزيفوا تابوتاً ولوحين آخرين ،
ويقولوا ما قد وجدنا التابوت ومحتوياته ، ورونا خط أصبع الله المزيف ، وم أقدر من زيف ولقي .

ثريمة حمورابي شريعتهم الرسمية . وكان حمورابي هذا بطلاً عربياً ، وقد غزا بابل وفتحها وحكمها هو وخلفاؤه أكثر من قرن . فدرس الإسرائيليون هذه الشريعة واقتبسوها . وكانت الكتابة قد تطورت حينئذ وتحوّلت تدريجياً إلى حروف صوتية . وكانت فوام اللغات السامية ولا سيما الآرامية والفينيقية . وصار ممكناً أن يكتب بهذه اللغات وحروفها مطولات ومتون على رق الغزال

وفي ذلك الزمان غزا كورش الفارسي بابل وفتحها فتقدم إليه اليهود الأسرى وتوسلوا إليه أن يطلق سراحهم فأعطاهم عطايا لكي يستعينوا بها على بناء هيكلهم . ولما عادوا إلى بلادهم وشرعوا يبنيون هيكلهم ، كان أول ما فعلوه أنهم جعلوا يضبطون شرائعهم ونظام عبادتهم وطقوسهم ونحو ذلك وأخذوا يدونون تاريخهم أيضاً حسبما تلقفوه عن آبائهم وأجدادهم . منذ ذلك الحين جعلوا يكتبون أسفارهم الخمسة بالتدريج . وكان ذلك بعد سبع قرون من خروجهم من مصر أي منذ وفاة موسى . ومن محاسنهم فيما يكتبونه من تاريخ وأساطير وحوادث وشرائع . كتبوا أخبار إبراهيم واسحق ويعقوب كما زين لهم الغرض والأمل . كانوا يضعون نصب أعينهم فكرة إن الله وعدم يكذبا وكذا وكيت وكيت فمن يقول لهم انكم كاذبون ، إن الله لم يعدكم بشيء . ورووا قصة خروجهم من مصر ومكثهم في البرية ٤٠ سنة إن كانوا قد خرجوا وإن كانوا قد وجدوا في مصر ، وليس في توراتهم ما يدل على أنهم رحلوا إلى مصر كما خرجوا منها . من يقول لهم إنكم لستم صادقين ، إنكم تكذبون عن لسان الله . وبعد ذلك لفقوا ما شاؤوا عن حروبهم مع الكنعانيين والأموريين وغيرهم من قبائل ذلك القطر على ما في روايتها من التنكيل والتفطيع بعباد الله بقيادة زعيمهم يشوع خليفة موسى . وهم بكل وقاحة ورجاسة وتجديف يزعمون إن الله كان يأمرهم بأن يهجموا على المدن ويقتلوا كل من فيها بحد السيف ، ولا يعفون عن طفل ورجل وشيخ ، وأخيراً أن يحرقوا المدينة . فابتدأوا بأريحا إذ كانت أول مدينة أمامهم ، ثم بعدها مدينة ماي ، ثم مدينة مقيدة ، ثم جيعون ، ثم تلخيش ، ثم محلون ، ثم جدون ، ثم دير الخ « فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها لم يبق شاربداً ، بل حرّم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل فضربهم الرب من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جوش إلى جيعون . وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك دفعة واحدة لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل (أنظر سفر يشوع الاصحاح العاشر عدد ٤٠ الى ٤٣) — بل اقرأ جميع الاصحاحات العشر من سفر يشوع تر فيها ما تقشعر له الأبدان من التفطع والتنكيل .

نقولا الحار

[يتبع]

التقاليد

عنقاء موهومة

الحرية كل لا يتجزأ . فاما أن تكون حراً ، وإما أن تكون عبداً . فإن انتقاص شيء من حرية الفرد ، طريق ممهود أمام المستبدين ليسلبوا الحرية جميعاً . وكذلك الحال في قضية المرأة : فهي إما أن تكون حرة كبقية المخلوقات ، وإما أن تكون رقيقاً . أما الحدود الوسطى التي يريد بعض عشاق التقاليد أن تقف حرية المرأة عند حدٍ منها ، فهي القيد ، وهي الاستعباد وهي الرق .

يخشى الذين يظهرون الحذب على المرأة أن تكون الحرية سبيلاً إلى انحلال أخلاقها . ولاي سبب ، بل لاي سنة من السنن تكون الحرية سبيل الفساد والفسق والفجور إذا كانت من نصيب المرأة ، وتكون سبيل الرشاد والفضيلة إذا كانت من نصيب الرجل ؟ بأية قوة سحرية ينقلب الذهب في يد الرجل ، رصاصاً في يد المرأة ؟

ثم : لماذا ننظر في حرية المرأة المسلمة ، نظرة تختلف عن نظرتنا في حرية المرأة على الإطلاق . اللهم إلا أن نكون على اعتقاد أن الجوهرة في يد المسيحية أو البوذية أو الزرادشتية ، تنقلب حجراً خسيساً في يد المسلمة ، وإلا أن نسلم أن أثر هذه الأديان في النفوس أحسن للنساء من أثر الإسلام .

يعور لأصحاب التقاليد الآثار التي تترتب على حرية المرأة وتمتعها بحقوقها المدنية والسياسية ، بصورة انتكاسية ، إذ يخيل إليهم أن الحالات القائمة اليوم في عالم المرأة هي أسوأ وأحكم وأفضل ما يكون ، وإنه ليس في الإمكان أكرم مما كان ، ويخيل إليهم أن الحالات التي تقوم إذا نالت المرأة حقها الطبيعي ، هي أخس وأسف وأرذل ما يتصور . والحقيقة أنهم وهمون . فالرجل هو الرجل ، والمرأة هي المرأة ، في كل العصور وفي مختلف

الأموار . في كليهما من النقائص والكمالات ما خطت الطبيعة في لوح الحياة . ما زادت الحرمانات التي نزلت بالمرأة في خلال العصور المرأة فضيلة ، ولا زادت رذيلة ، فقد ظلت المرأة هي المرأة . فهي نبت رأي للطبيعة فيها لا يتبدل ولا يتغير . وإنما يتبدل في المرأة العادات والزعمات . فإن الحرمانات تحملها على اللجوء إلى أفكار السوء ، بقدر ما تحملها الحرية على أفكار الخير والجمال .

هل انتكست الأخلاق ذلك الانتكاس الموهوم الذي يتخيله أسيادنا أصحاب التقاليد في كثير من بلاد أوربا عند ما تحررت المرأة من أسر الرجل ؟ هل شاعت فوضى الأخلاق وانحلت روابط الاجتماع ؟ كلاً وألف مرة كلاً . فإن أوربا لا تزال سيدة الدنيا حتى بعد أن تحررت المرأة فيها ، بل إنها زادت قوة إلى قوة منذ أن شاركت المرأة الرجل في عالمي السياسة والاقتصاد .

أيراد بنا أن ننظر في قضية المرأة في الغرب وقضيتها في الشرق من زاويتين مختلفتين ؟ أما إذا أريد بنا ذلك ، فإنه ولا شك يلزمنا القول بأن المرأة الشرقية وبالأحرى المسلمة ، هي من طينة غير طينة النساء . بل يلزمنا أن نقول إن المرأة الشرقية والمسلمة بخاصة ، أقل ائتمناً على فضائلها من المرأة الغربية . وهذه على أية حال قضية فيها نظر ، لم يفصح لنا عنها أسيادنا أصحاب التقاليد .

إن الكلام في قضية المرأة على هذه الصورة إنما يقصد به الانتكاس لا الإصلاح . أما الذي اعتقده فهو أن هذه القضية الخطيرة ينبغي أن تعالج في ظل الحالات العالمية التي تساق فيها الأمم الآن ، لا في ظل حالات محلية ، تخلقت ملابسها عن مقتضيات الحضارة مراحل كبيرة وأشواطاً طويلة .

أريد أن يعرف أولئك الذين ينادون بالتقاليد ، ما هي تلك التقاليد . أهى تقاليد الحرم والأغوات والدادات ؟ وإذا لم يكن هذا هو ما يعنون بالتقاليد فأى شيء يعنون ؟ أهى تقاليد التسري واتخاذ المحظيات ، وما يملك يمين الرجل من نساء ؟ أهى حبس المرأة واستغلال ضعفها ومنعها من التمتع بأية قدرة اقتصادية لتظل عالة على الرجل ، ورهينة لأمره ، ونهباً لثرواته ؟ أهى شريعة أن تمنع المرأة من كسب قوتها وإن مست إليه الحاجة ، لتظل إلى الأبد ذلك المخلوق الضعيف المهان المترهل الجسم والعقل والحواس ؟ أرجو أن يحدد القائلون بالتقاليد ، ماذا يعنون بها ، والأفان هذه التقاليد تصبح ذلك الحصان المجنح الذي نقرأ أخباره في الأساطير .

ان الحياة الاجتماعية قد انقلبت آيتها . فائن قامت الحياة الاجتماعية قديماً على قوة العضلات والجرأة والبطولة المستندة الى السيف والخربة والمزراق ، وكانت جميعاً من خصائص الرجل ، فانها تقوم اليوم على قوة الآلة ، لا آلة الحرب وحدها ، بل آلة المصنع ، كما انها تقوم الى جانب المصنع على قوة العلم الذي يؤسس المصنع ويخترع الآلة ويوجه سياسة العمل . والامم الحديثة إنما تعتمد في تشييد ذلك كله على ما يسمى « قوة الحشد » وتقصد به حشد جميع قوى الأمة ، ثم توزيعها على المرافق العامة توزيعاً يتوخى فيه التوجيه نحو الغايات التي تتطلبها الظروف ، أو تدعو اليها السياسة التي توجه فيها خطى الأمة .

ولقد شعرت الأمم بما يحفزها الى العمل على حشد القوى منذ أن بدأ الانقلاب الانتاجي الحديث ، إذ أخذت كل أمة تحشد من القوة ما يضمن لها التفوق في معركة التنافس التجاري والتناحر على الحياة . وإنما يتم الحشد بتعبئة قوى الأمة رجالاً ونساء .

بلغت هذه الحال قتها العليا في الحربين الأخيرتين ، إذ بان جلياً أن الأمة التي تكمل حشدها تكون فرصتها في الفوز أكبر وانتصارها أضمن . ومن ثمت حتى الآن رى العالم وقد أخذت كل أمة تحشد من قواها الانتاجية والمادية ، ما تتوخى به الفوز في المعركة المقبلة ، وإنها المعركة واقعة لا محالة .

هذا في العالم المتحضر . أما في مصر التي تريد أن تلاحق امم هذا العالم ، وتأخذ بأسباب الحضارة الانتاجية الصناعية ، فلا يؤمن أحد بما لقوة الحشد من أثر في القدرة على البقاء في عالم تستعد حشوده للمعركة الفاصلة ، وإنما يراد بنا أن نؤمن بالتقاليد : تلك العنقاء الموهومة .

أما أولئك الذين يقولون بأن روسيا قد رجعت خطوات بعد أن طفرت الى حرية المرأة فيكادون لا يعرفون عن روسيا شيئاً . وإنما هم يلجؤون الى أقوال أشبه بأقوال ذلك الذي أتى بالناس وقال له كم عدد النجوم التي تظهر في الليل ، فلما عين رقاً موهوماً ، قال له أنت مخطئ . والواقع أن كليهما مخطئ ، ولا يعرف من الحقيقة إلا وهما يتراءى . أما الحق فهو ان الفتاة الروسية هي التي أنقذت ستالينجراد من السقوط في يد الألمان ، وبذلك ردت جحافل الألمان عن الوطن الروسي . هي التي عبرت الفولجا في الظلام لتنقل الذخيرة والميرة للمدافعين عن مدينة الفولاذ . ولعل أولئك الواهين لا يقولون أن ذلك هو السبب الذي تقم له الروسيون من المرأة فعملوا على ردها حريماً على الصورة التي يتمناها أصحاب التقاليد .

عروس النيل

- ١ -

أعياد النيل عند قدماء المصريين

قرأت بصحيفة « الاهرام » الغراء بتاريخ ١٨ أغسطس سنة ١٩٤٩ ما كتبه
حضرة الناقد الشهير الأستاذ أحمد الصاوي محمد بمناسبة عيد وفاة النيل في « ما قل ودل »
إذ قال :

« أين عروس النيل ١ ... أين ذلك الرمز الخالد للتضحية ، تفتدي بنفسها قومها »
« وبلادها ووطنها .. وتذهب راضية مرضية ، إلى أعماق النهر ، وينطوي ذلك الحسن »
« الأسمر الرائع في طيات أمواج النجاشي ».

عرف من الآثار التي استكشفت أن المصريين كانوا يقيمون للنيل احتفالات تشبه
الأمياد ، ولم يذكر المؤرخون عنها إلا شيئاً قليلاً ، فمن ذلك ما قاله « پلين » المؤرخ
الشهير في القرن الأول للميلاد إن المصريين في عصره كانوا يقدمون الغذاء للتماسيح
ويلبسونها بعض الثياب في وقت الفيضان ويلقونها في النيل فتبدو ألوان الثياب الناصعة
في منظر بهيج يروق الناظرين .

والذي لا شك فيه أن كل الاحتفالات الخاصة بالمهرجانات التي تقام لفيضان النيل
سنوياً كانت بمنزلة فريضة دينية يحترمها الناس كاحترامهم للنيل (١) ، وكان رؤساء النيل
يقيمون لها الزينات المعتادة للأعياد العامة .

وجاء أيضاً ما نصه : « يستقبل الشعب المصري بالفرح والسرور ظهور مياه السلسلة
القدسة ، فابتهاج النفوس وفرحها بمجيء النيل أمر طبيعي ، ويجب أن يعد فيضانه في
مقدمة الأعياد التي بحلولها يهنئ المصريون بعضهم بعضاً .

وجاء في أنشودة النيل المكتوبة في ورقة إنسطامي البردية ما نصه : « أيها الفيضان

المبارك قدمت لك القرايين والذبايح ، وأقيمت لك الأعياد العظيمة ، وذبحت لك الطيور
واقتنصت لتحيتك الغزلان من الجبال ، وأعدت لك النار الطاهرة ، وقدم لك البخور



(رقم ١) عروس النيل أو مصر هبة النيل

والنعم السماوية والعجول والثيران ، فتقبلها هدية شكر واعتراف بفضلك » ولم يذكر
بها مطلقاً إلقاء عذراء في النيل (١) .

وجاء ذكر أعياد النيل في مائدة القرايين محفوظة في متحف فلورانس ، ويرجع تاريخها إلى ملوك الأسر الثلاث الأولى .



رقم (٢)

المعبود حورس (أبولون)

وقال « ماسبيرو » في هذا الموضوع : « عند ما يصل الماء المقدس إلى جدران مدينة « سين » (أسوان) يقدم الكهنة أو الحاكم أو أحد نوابه ثوراً أو بطاً ، ويلقيه في الماء في حرز من البردي مختوم عليه ، ويكتب في الحرز الأمر الملكي الخاص بنظام الفيضان . ومتى رأس الملك نفس هذا الاحتفال نقشوا في الصحراء وسجلوا هذا الحادث تذكراً تاريخياً . وإذا تغيب الملك عن الاحتفال ناب عنه الكهنة باحتفال عظيم ، مملين بمثال المعبود سائرین به على ضفاف النيل والجسور برتلین الأناشيد » .

ومن المستندات الرسمية الباقية عندنا الآن شواهد لسلال الثلاث ، يرجع تاريخها إلى عهد الملوك رمسيس الثاني ، ومنفتح ابنه ، ورعسيس الثالث ، وهي تنقسم إلى جملة أجزاء ، فبعد مقدمة رعسيس الثاني تقرأ أنشودة النيل ، وخطاب الملك بالتهليل للمعبود ، ثم القرار الذي يحدد تاريخ الأعياد ، ويلحق به كشف القرايين وملخص زجه كالآتي :

« في السنة الأولى والشهر الثالث من فصل الحصاد ، واليوم العاشر في عهد المنير نفس الملك القادر المحبوب من الحق ، صاحب التيجان حاكم مصر المنتصر على البلاد الجبلية حورس الذهبي (رقم ٢) مديد العمر المبارك ملك الوجهين القبلي والبحري رعسيس المحبوب من أمون أبي الآلهة الذي يمنحهم الحياة والبقاء والقوة كالشمس إلى الأبد فليحيي الإله الطيب النيل الذي يحيي النفوس بجوهره والثروة بشماته (رقم ٣) أنت أيها الوحيد الذي تظهر من نفسك ، ولا يعرف أحداً تحويه والكل يفرح بظهورك من غيبك ، فيك تربي الأسماك العديدة ، ومنك تفيض الخيرات على مصر ، فأنت خلقتنا ، ويسر بك الناس والمعبود « نون » متى قدم له القرايين أهالي البلاد ، واتحدوا

معه في فرح التحية بقدم النيل المضيء، فخبراته على البلاد تستفيض من صنع يديه وتندفق ببركاته»

«وقد أمر الملك بتقديم القرايين لأبيه أمون رع (رقم ٤) ملك الآلهة مرتين في السنة في زمن مياه السلسلة المقدسة، وفي مكانه المكرم الذي لم تكن قبله مياه، حياة وسلام وقوة».



(رقم ٤) المعبود أمون رع
ملك الآلهة

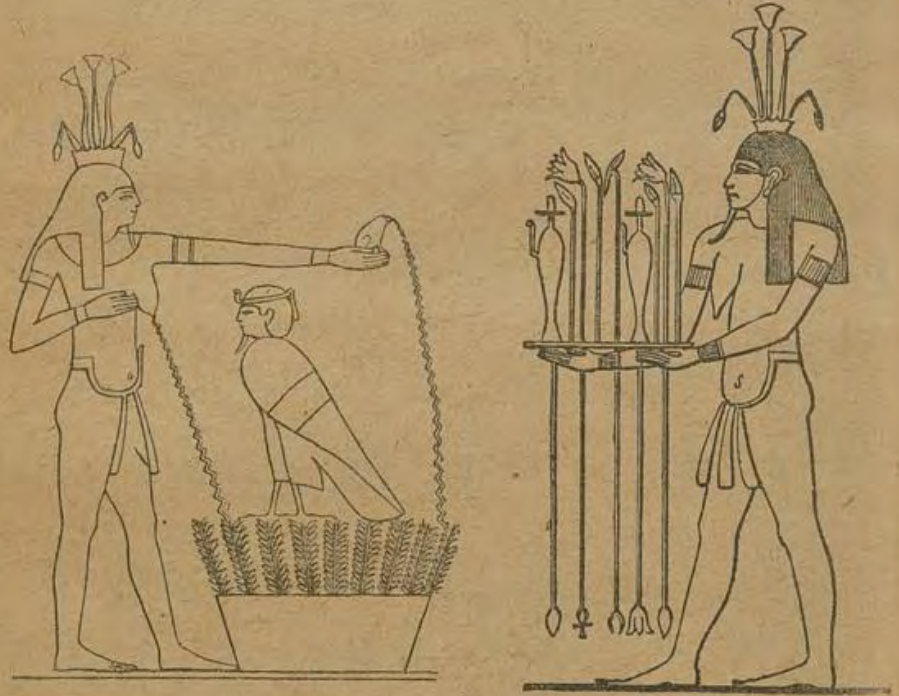


(رقم ٣)
نيل الوجه القبلي ونيل الوجه البحري
حاملان ثمار النيل كالأسماك وزهرة البردي
والأصل محفوظ بالمتحف المصري بالطبعة السفلى
بالجناح الشرقي.

«فتقدم القرايين في اليوم الأول من شهر سايت، وفي الخامس عشر من شهر توت،
وفي الشهر الثالث من فصل القيضان، والخامس من شهر ايب «كضريبة سنوية»

« ويلقي في النيل عجل أبيض، وثلاث أوزات وهدايا ثمينة، ثم الكتاب الشامل لتفصيلات المهرجان وأنواع الهدايا للآله أمون رع ملك الآلهة ورب مدينة طيبة »
إذن لم يلقَ بعذراء في النيل كما يزعمون

ومهما اختلف المؤرخون في تواريخ أعياد النيل ونماذج احتفالاتها ، فلا تخرج عباراتهم عن قول واحد وهو بذل جهدهم في مظاهر الأفراح عند بدء الفيضان ، وإلى ذلك أشار العالم الأثري « دي روجيه » إذ قال « في اليوم الخامس عشر من شهر توت جاء فيضان النيل في سلسلة ، وفي ١٥ أديب صعد النيل فقدمت القرابين والهدايا للعبود جمعي (اسم النيل المقدس) (رقم ٥) ، وفي ذلك اليوم كانوا يلقون له ميثاقاً مكتوباً من ديوان الملك ، فيقبل النيل هذا العهد ولا يختلف عن وعوده ، فيمنح مواهبه أرض عبيده المؤمنين »



(رقم ٥) الإله جمعي (اسم النيل المقدس)

وفي نتيجة « مدينة هابو » تاريخ لأعياد يحتفلون بها ، ويظهر أن قدماء المصريين كانوا يحتفلون في يوم ٣٠ من شهر كيهك بعيد الصليب . قال بروكش باشا « العالم الألماني أنهم كانوا يحتفلون بهذا العيد في جملة مدائن مثل أدفو، ودندرة، واسنا »

وكانوا يجعلون لمقياس النيل (رقم ٦) عيداً خاصاً فيحمل مقياس النيل في معبد سيرابيس .



(رقم ٦) — الشيخ والستة عشر طفلاً رمز للنيل، والستة عشر ذراعاً (المقاييس)
والأصل محفوظ بالفاتيكان بروما، ويرجع تاريخه للعصر الروماني

وروى سنيك الفيلسوف الروماني (في القرن الأول للميلاد) : « أن المصريين في عهد
الرومان كانوا يلقون في نهر النيل القرايين ويلقي الحكام بعدها هدايا من الذهب وأنواع
الخلي » .

ولا يزال تقليد الاحتفال بأعياد النيل باقياً الى يومنا هذا ، ولا نعر على نص مصري
يؤيد ما نسب الى قدماء المصريين من تقديمهم ذبيحة بشرية، في حفلة فيضان، أو لأجل ان
يجود النيل على البلاد بفيضه السنوي

ويظهر أن منشأ هذه الخرافة قصة رواها « بلوتارخ » المؤرخ اليوناني في القرن الأول
للميلاد ، وتناقلها عنه غيره من قومه، ومن الرومان، ومن العرب إذ قال : « اعتماداً على وحي
أجيببتوس ملك مصر قدّم إبنته قرباناً للنيل ليخفف غضب الآلهة، وإنه بعد فقد ابنته ألقي
بنفسه في النيل » .

فهذا القول هو أصل الاعتقاد بتقديم فتاة عذراء قرباناً للنيل المعبود كل سنة . ويكفي
أن البدهاة الذوقية تكذب هذا الزعم بعد العلم الراسخ بما كان للمصريين من القدح الممل

في المدنية ورقة الشعور وسمو العواطف حتى مع الحيوانات المعجم . فبالأولى تشمّر
سجيتهم عن إلقاء فلذة كبد من أكبادهم في مجرى المياه المتلاطم الأمواج التي لا تبقي شيئاً
من إرهاق النفوس واختطاف الأرواح من أجسادها ، ولم يكن العقل يستسيغ اقتراف
هذا الجرم وانخداع النيل بارتكابه .

أما ذكر «عروس النيل» بلفظة «ربيت» المشار إليها في ورقة «هريس» البردية، فيكفي
في إثبات أنه خرافة وخطأ ، إن لفظ «ربيت» هو علم على أحد أشكال النيل المؤنثة، وليس
علماً على «عروس» كانت تلقى في النيل كما زعم بعض المؤرخين . والقول باستمرار العادة
بإهداء الذهبية والطيور والحيوانات لا ضرر منه ، وغاية ما يلتمس به العذر هو التفاؤل
بأن يكون الفيضان سخياً على مجموع الخلائق بوجود بأهم ما تشاقه النفوس .

٢ - أعياد النيل في العصور الوسطى

استمر المصريون على ما ألفوه من عادات الأعياد ورسوم الحفلات، ولم يغيروا حفاوتهم
بها مع ما طرأ على ترتيباتها من التفاوت في الرونق والأوضاع ومظاهر الزينة ، فهي كانت
عرفية ووراثية وقومية ودينية إلى أن جاء الفتح الإسلامي بمصر، فحذا كثيراً من العادات،
ولا زال بعض آثارها باقية إلى يومنا هذا . وفي كثير من المتاحف بالمدائن الشهيرة بعض
بقاياها الدالة على ما كان للنيل من المكانة في النفوس ، والنيل من حيث هو منبع الفيض
والخيرات ، يبتقى بمكانته العمرانية في أرفع مراتب التجلة والاحترام ، فهو كما تقدم كأنه
انزع من مساحات الصحراء كميات وافرة كانت مجدية فألبسها حلة الرغد والسخاء ، وجعل
القاطنين بها أغنياء بعد الفقر ، وذوي سعة ويسار ، بعد أن كانوا في حضيض الفاقة والضحك .
ولا زال الاحتفال بمهرجان النيل متبعاً في نوعيته إلى الآن، فكأن المصريين في محافظتهم

على تقاليد آبائهم افترضوا على حكاهم احترام تقاليدهم وعقيدتهم في النيل المقدس

وكان من عقيدتهم في عهد الفراعنة أن دمعة المعبودة «إزيس» (رقم ٧) تنزل في النيل
وتسبب فيضانه فبقيت هذه العقيدة إلى العصر المسيحي ، وظن الأقباط أن النيل يفيض
بنقطة إنسية تنزل من السماء ، ونجد في النتيجة السنوية القبطية أنه قبل انقلاب الشمس
في الصيف بأربعة أيام أي في اليوم الحادي عشر من شهر بؤونه يحتفل بعيد ليلة النقطة

السماوية التي تطهر الهواء ، وترفع الطاعون عن الأرض . ويقول البعض إن جبرائيل رئيس الملائكة يصلي قبل ذلك بثلاثة أيام ويدعو حتى تفيض مياه النيل فيسجد ويتوسل إلى ربه بأن يفيض النيل وينزل إلى الأرض المطر والندى ، ويحمل في يديه سيفاً لطرد الشيطان وإليه فيما يقولون يرجع فضل زول النقطة الإلهية .



(رقم ٩)

ست (تينور)

(رقم ٨)

المعبود حورس (بان)

(رقم ٧)

المعبودة إيزيس

فالآباط حافظوا على تقليدهم القديم حتى أتت النصرانية ، وجعلوا يوم زول النقطة عيداً . وقد جاء في بعض النصوص ذكر النقطة السماوية وليلة موج الدموع . وأن قصة قتال جبرائيل رئيس الملائكة للشيطان تشبه كثيراً قصة حورس (رقم ٨) المنتقم لأبيه من ست ، (رقم ٩) وأبيه أوزوريس (رقم ١٠) رمز الأرض السوداء الخصبة ، وست رمز الصحراء المجيدة .



(رقم ١٠)

أزوريس (ديونيسوس)

ومتى حان وقت نزول النقطة يتوالى الفيضان ويرتفع الى درجته المعلومة . ومن المآدات المألوفة الى اليوم ان بعض الناس اتخذوا المناداة للتبشير بمبادئ الفيضان في أوائله سبباً للإرتزاق بما يسديه إليهم الناس عند هذه البشري ، فهنيء بعضهم بعضاً بحلول موسم النيل كالتهاني المألوفة في الأعياد السنوية

ثم يأتي عيد زواج النيل، والاحتفال بقطع الخليج ، والقول بزواج النيل مبني على تلك القصة الخرافية قصة لقاء فتاة في النيل تلك الفتاة التي استبدل بها الى عهد قريب تمثال من الخشب يحلى بملابس ويزين بالقصب ونحوه . وأما الاحتفال بالنيل وإلقاء النقود ونحوها في مجراه ، فهذا على سبيل التفاؤل كما تقدم . ومن التماثيل الموجودة في متحف اللوفر تمثال رمزي يمثل النسر صنع مدينة الإسكندرية وهو يشبه أحد تماثيل النيل المحفوظة الى الآن بمتحف الفاتيكان في رومة . (راجع رسم ٦)

٣ - أعياد النيل في العصور الحديثة

نقل المقرري في خططه عن ابن الحكم (صاحب كتاب «فتوح مصر» وغيره المتوفى سنة ٢٥٧ هـ - سنة ٧٨٠ م) من أخبار مصر أنه في سنة ٢٣ بعد الهجرة لما افتتحها عمرو بن العاص جاء إليه الأقباط وقالوا إن للنيل سنة لا يجري إلا بها ، قال وما هي؟ فقالوا: إذا خلت اثنتا عشرة ليلة من شهر بؤونة من الشهور القبطية عمدنا إلى جارية بكر مليحة نأخذها من أبويها غصباً ، ونجعل عليها الحل والحلل ، ثم نلقيها في بحر النيل في مكان معلوم عندنا . فلما سمع كلامهم قال هذا لا يكون في الإسلام أبداً . فأقام أهل مصر أربعة أشهر بؤونة ، وأيبس ، ومسرى ، وتوت لم يزد فيها النيل لا كثيراً ولا قليلاً . ولما رأوا ذلك هموا بالجلاء عنها . ولما رأى عمرو بن العاص منهم ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فلما وصل إليه ذلك الكتاب وعلم ما فيه كتب بطاقة وأرسلها إلى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيها في نهر النيل . فلما وصلت إليه تلك البطاقة فتحها فإذا مكتوب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك . أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله تعالى هو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك ، فلما وقف عمرو بن العاص رضي الله عنه على ما في البطاقة ألقاها في بحر النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد ، وعيد الصليب يكون في السابع عشر من شهر توت فأجرى الله تعالى النيل في تلك الليلة ستة عشر ذراعاً في دفعة واحدة »

وروى بعض السائحين بمصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر بعد الميلاد أن المصريين كانوا يلقون عروساً من الخشب في النيل . واليك وصف الاحتفال :
« يتألف الموكب من حاكم البلد وطوائف عديدة من الأقباط والعلماء والأعيان ورجال الدين والبطرك وفريق من رجال الاكليروس ، وتبعمهم الموسيقى وخلفها الجماهير يصفقون ويترنمون بالأنشيد : ثم يلقون العروس الخشب في النيل وقت فتح الخليج .
ولما أتى بونا برت مصر ترأس حفلة النيل باعتباره أكبر حاكم للبلاد ، ولا يزال المصريون يحتفلون بوفاء النيل ، ويطعمون الأفراح في كل الجهات احتفالاً به فيكون بالرونق والزينات هيداً مشهوداً .

وروى المؤرخون اليونانيون إنه كان لكل إقليم من الأقاليم المصرية القديمة آلهة خاصة ، إلا أن جميع القدماء أجمعوا على تقديم فرائض خاصة للنيل ، وكان لفيضانه العجيب احتفال سنوي كعيد يبتهج به جميع أفراد الشعب .

وكان من عقائد القدماء إن لكل شيء روحاً ، وحياة ، وإرادة ، وشخصية سامية ، من هبات المعبود الأعلى ، وإن النيل يشفي من الأمراض ، وإن الأقباط والمساكين وإن كانوا أبطلوا الاعتقاد بالوهمية النيل ، لكنهم لا يزالون يصفونه بقولهم النيل المبارك . وفي زمن فيضانه كان البطرك يذهب إلى النيل مصحوباً بحاشيته إلى مصر العتيقة ، ويلقى في النيل صليباً من الفضة . وكان الترك يحتفلون به رسمياً ، ومتى انتهى الاحتفال كانت الجماهير تلتقي في النيل الجبوب والثمار والسكر والخبز والدراهم ، ويغتسل الأطفال في مياه النيل ، وبعض الناس يغتسلون أيضاً بأول ماء يمر في الخليج طلباً للشفاء وإزالة العقم .

وكان من المتبع قبل اليوم المحدد لجملة يوم وفاء النيل أن يضعوا في مصر العتيقة تمثالين كبيرين عليهما أنوار مركبة على منصة من الخشب مسندة على مراكب ، وهذان التمثالان يمثلان رجلاً وامرأة ويسميان العروسين

وكان من عاداتهم صنع عروس أخرى من الطين ويلقونها في النيل يوم الفيضان .

وقال هيرودوت « إن المصريين كانوا يكرهون ذبح الحيوانات فمعقول جداً إن يترفعوا
عن ازهاق الأرواح التي قيل إنهم يقدمونها كقربان وضحية طلباً لوفاء النيل



(رقم ١٢) رسم « لعروس النيل »
أي أرض مصر يرجع تاريخه الى
القرن الأول للمسيح ، مصنوع
من النسيج الملون نقلاً عن كتاب
Bock, Sur l'art copte p. 151 ومكتوب

عليه كلمة « جي » باليونانية
ومعناها أرض



رقم (١١) رسم « للنيل » يرجع
تاريخه الى القرن الأول للمسيح
والأصل بمتحف موسكو وهو مصنوع
من النسيج الملون نقلاً عن كتاب
Golénischef Resultats oviches logiques

١, 57 ومكتوب عليه باليونانية
« نيلوس »

وللاحظ ان كل أمة يدخل عليها دين جديد ينشر عنها خرافات كثيرة . وإذا تأملنا
رواية ابن الحكم والناقلين عنه كالمقرزي وغيره ، يتضح لنا إنها خرافة مخترعة . نعم
إن ابن الحكم نقل هذه عن اليونان كما نقل غيره أكاذيب أخرى في كتاب عنوانه
« الأنهار » نسبوه الى بلوتارخ ، ودونوا به أن أحد ملوك مصر لما أبطأ فيضان النيل في
بعض السنين ألتي ابنته فيه بأمر الآلهة واشتهر في الروايات ان الاحتفال يمثل (زواج النيل)
الذي هو أزوريس (رقم ١١) بأرض مصر التي تمثل اريس (رقم ١٢) فالمرجع في كل
الروايات الى تصور خيالي ليس الا .

٤ — أنشودة النيل لقدماء المصريين

من لوازم الفطرة الراقية ابتكار الأناشيد في المناسبات التي ترتاح النفوس فيها إلى الترنم بما يستطاب لأجلها افتخاراً واستلذاً واستبقاء لحسن الأجدوة ، فيتداول الناس الأناشيد كلما تجددت الذكرى للاحتفالات ، والنيل عند قدماء المصريين قد اختصوه بما ألفوا من مظاهر الأفراح ودلائل المسرات عند فيضانه ومواسم أعياده . وقد خصوه بأناشيد رائعة تعرب عن شدة شعورهم ، ومن بينها الأنشودة التي نغمها في عصره الشاعر المصري القديم ووجدت مكتوبة في لوحين على الورق البردي المحفوظ بها إلى الآن في المتحف البريطاني ، وترجمها العالمان الأثريان الشهيران « ماسبرو » و « جيس » وهما اللذان نقلها من الشعر المصري القديم ، وقد ترجمتها إلى العربية نظماً من الرجز

نسدي إلى النيل سلاماً طاراً	لأنه قد جاءنا مباركاً
اليوم عيد النيل في بشراه	فكلنا تسرنا لقياه
النيل يحيي فيضه ببلاده	وهي له تلازم العباده
منظره يروق للأبصار	وسره معجزة الأفكار
النيل يأتينا من الظلمات	ليملأ الأكوان بالخيرات
يروى فداه ألضر الحدايق	وينبت الأرزاق للخلائق
كأنه يأتي من السماء	ليمنح الحياة للأحياء
يحيي موات الأرض في النواحي	كأنه من عالمي فتاح
يجود بالخير (لسب) محسنًا	كما (لنبراً) قد أقر الأعينا

(٢)

النيل رب السمك المحبوب	يأتي به من عالم الغيوب
ويخصب النبات في الغيطان	والزهر والريحان في البستان
ينبت قمحاً وشعيراً جيداً	ولن يصد النيل عنه أحداً
بالنيل ينجو من شقاء الدهر	كل فقير من أهالي مصر
في نعمة النيل لهذا الوادي	سعادة الحكام والأفراد
والبطء في الفيض يضر الخلقا	ويغضب الرب الرحيم حقاً

(٣)

فيوضه تأتيه من أتوم فتحتني من خيره المقسوم

وتنتسني أو هام كل خائف بالنيل فهو مصدر اللطائف

(٤)

كأنك الخالق للأشياء وماح الضعاف بالنعماء
ومن نداك بمنح القربانا فلا نخاف بعده هوانا
كل غني منك يرجو نعمته ويمنح المحتاج منها رحمته
فأنت للغني والفقير ملجأ كل الخير واليسير

(٥)

أنت رئيس سفن الحياة تسري بها لساحل النجاة
أسرار مجراك علينا خفيت لكن مزاياك لدينا عظمت
فلست محتاجاً إلى قربان ولست تخشى خدع الانسان

(٦)

ولست محتاجاً إلى مكان فأنت رب الفيض والإحسان
يلقاك بالتصفيق عند اللقيا مستبشرين كل من في الدنيا
فأنت تحيي مهجة الظمان وحارس الملوك والتيجان

(٧)

منك المعونات على الدوام مقرونة بالحمد والإعظام
وأمرك المطاع في البلدان تقبله النفوس بالإذعان
وتعلا القلوب حباً صادقاً وتحمل الكون بشكر ناطقا
أولاد «سبك» منك في أفراح وأهل «نيق» بك في انشراح
كأنما دائرة الوجود أمام مجراك من الجنود
يغني العباد عن شقاء الجهد فيضك إذ يأتي بكل رغد

(٨)

يضيء منك الماء حين يبدو بعد الظلام وهو ما تود
لم تتخذ فيما ترى أعوانا ولم تدع لحاكم سلطانا
فأنت روح الكل في الوجود أنعم بفيض النيل من مقصود

(٩)

تأتي وتمضي طبق ما تريد وكم تطيع ربها العبيد
وكل ثوب من هموم ماضيه تنزعه بشري التلاقي الزاهيه
فأنت للسقام نعم البلسم ومنك للجميع تصفو الأنعم
تجيب بالفيض رجاء الأمة وتصطفئها بعميم الرحمة
يحوي ثراك أفس المعادن فتكثر الأموال في الخزائن
لكن بالقمح حياة الناس وليس بالأموال في القرطاس

(١٠)

في عيدك الصغار والكبار تطربها الطبول والمزمار
ويستطاب الأنس والسرور ويتباهى بالصفاء الجمهور
فأنت حقاً زينة البلاد ومصدر الخيرات والاسعاد

(١١)

وكما جئت الى المواسم أسديت فيها أعظم المغامم
فيفرح الغني والفقير إن لم يعق فيوضك التأخير
وهكذا مسرة الأقوام يحبونها في سائر الأعوام

(١٢)

نهدي إليك الطيب والمعجولا وكل قربان نرى المقبولا
ونوقد النيران والبخورا ونغلا الدنيا بها سرورا
تخرج من (بتيو) وتأتي طيبه كمستهام زائر حبيبه
وكل ما يحويه سر النيل لم نكتشف منه سوى القليل

(١٣)

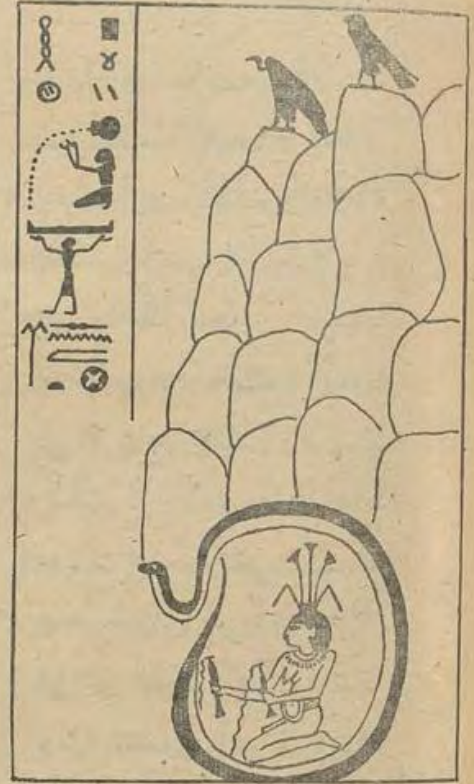
مصر تعد النيل رباً ساميا فاجعل لنا بالفيض حظاً ساميا
واجعل بني النيل على سواهم يرقون شأناً رغم من عادهم
آمين . آمين . آمين

وكان قدماء المصريين باعتيادهم الترنم بهذه الأنشودة يمتنون بتوقيعها على أوضاع الآلات الموسيقية ليكون لوقعها في النفوس طرب النشوة الموسيقية والانفراح القولي، ولا زلنا الى العصر الحالي نتلقى من عوام المنادين الذين يطوفون وحو لهم الغلمان في الأرفة والجارات ما هو بلا شك صدي متتابع من ترديد هذه النغمات أيام الفيضان .

ومن أولئك المنادين من يقتصر فيما يليقه على غلمانة بأناشيد مختصرة ، ونغمات مقتضبة ، ومنهم من يجعل كلماته على نسق السجع المريع ، الذي طرأ عليه التحريف العامي في النطق والتلحين بما لا يخرج في معناه عن القول الآتي :

إنك أيها النيل المبارك صاحب القوة العظيمة ومنك تتدفق الكنوز ، وتفيض الخيرات على أرض مصر ، بارك الله تعالى في فيضائك ، وأدامك متدفقاً بالخير والبركة على البلاد والأودية والبساتين والمزارع ، يشكر نعماءك الأنس والحيوان والطيور في أوكارها ، والحيتان في أغوارها .

رسم يمثل الإله حمي (النيل) في مخبئه ، وتفسير هذا الرسم إنه يوجد فوق صخور مرتفعة عليها رسما الصقر والباشق ، وفي حجرة يرى بداخلها هيكل إلهي لآله رائع حاملاً في يديه آنية تخرج منها فيوضات النيل المبارك ، ويمجد الرائي مرسوماً على رأس الحجرة حية ملتفة على نفسها وبين رأسها وذنبها منفذ ضيق لمرور النيل . وهذا الرسم فسره كاهن مدينة سايس للمؤرخ هيرودوت بأنه منتهى معلوماتهم عن منابع النيل



فاذا كانت عبادة النيل بصفته إلهاً كما كان يمجده به قدماء المصريين في حفلاتهم ومعايهم فقابلته بالتحية والبشاشة والفرح والسرور عند مبادئ أشهر فيضانه آثاراً باقية من العواطف القومية لدى الأمة المصرية بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات والتطورات الفطرية .

وقصارى القول لو كان هناك حقيقة أن قدماء المصريين كانوا يلقون عذراء في النيل يوم فيضانه ، لكانوا أثبتوها في أنشودتهم المذكورة . إذن رواية ابن الحكم ما هي إلا خرافة منقولة عن اليونان .

انظروا زكري

أمين مكتبة المتحف المصري سابقاً

ترتيلة السّحر

في وادي تشاموني^(١)

« يا لهذه المناظر السامقة في مهابتها المذكرة على الوادي العميق في شتى
الصور أنها لسحر ساحر تكاد لا تصدقه العين لولا أنها حقيقة ماثلة ».

برمي شيللي

عَلَوْتُ بِعَرْشِكَ السَّامِي ارْتِفَاعاً	مهيّياً في جلالته مطاماً !!
فَهَلْ لَكَ قَبْلَ أَنْ تَخْفِيَ الدِّيَاجِي	فَتَبْقَى نَجْمَةٌ الْإِصْبَاحِ سَاعاً !!
أَيَّا جِبَلِ الرُّوَائِعِ ، لَسْتُ أُدْرِي	وَفِيكَ أَرَى الْإِبَاطِخَ وَالْقَلَامَ ؟
أَأَنْتَ زَيْنُهَا ، أَمْ أَنَّ مِنْهَا	جَلالاً مَا يَنِي إِلَّا طِلَاماً ؟
فَمَا أَبْهَاكَ فِي صَمْتٍ تَجَلَّى	عَلَى وَادِيكَ يَنْحَدِرُ انْصِياعاً
تَحْفُ بِكَ الْجِدَاوِلُ جَارِياتٍ	تَجُوسُ مَسَالِكَ الْغَابِ انْدِفَاعاً
تَصْفَقُ بِالْخَرِيرِ وَمَا تَوَانِي	عَنِ الْإِيْقَاعِ يَجْتَذِبُ السَّمَامَ
وَيَكْسُوكَ الظَّلَامُ ثِيَابَ دُجْنٍ	كَلَوْنٍ (الْأَبْنُوسِ) إِذَا أَشَامَا
تَسَاوَرُهُ الْبَقَاءُ ، وَقَدْ أَغَارَتْ	عَلَيْكَ نَجْمُوهُ تَبْغِي الصَّرَا
وَأَنْتَ أَزَاءَهَا طُودٌ شَمُوحٌ	تَصْدُ جِيوشَهَا عَرْمًا شَجَاعاً (٢)
فِيَا لَكَ مَارِداً لَمْ تَكْتَنِفْهُ	غَوَاشِي الْهَوْلِ رُعباً وَارْتِياعاً
أَحْلَقَ بِالنَّوَظِرِ فَيْسِكَ أَرْنُو	وَمَا تَنْفِكَ أَشْوَاقِي رَبَّاعاً
وَأَرْجِعُ مُحَدِّقاً بَيْنَ الرُّوَايِ	فَأَلْفِي الْغَيْبَ يَزْدَادُ انْقِشَاعاً
فِيَا زَهْرًا تَنَاطَرَ مَسْتَقَرًّا	عَلَى الْأَغْصَانِ مِنْ شَغْفٍ تَدَاعَى
وَيَا شَجَرَ الصَّنُوبِ وَالْغَوَالِي	تَعَانَقُ مِنْ ذَوَائِبِهَا التِّيَامَا

(١) مقتبسة من قصيدة للشاعر الانكليزي صموئيل تيلور كوليردج وضعها عند زيارته
للوادي الجميل الواقع بجبال الالب في شمال إيطاليا . ولد كوليردج عام ١٧٧٢ وتوفي عام ١٨٣٤

(٢) عرم — قوي شرس .

ويا سرب السوائم وهي ترعى أعالي الجنادل لا تُراعى
تجاوِرُها النُورُ مهُوماتٍ جوائم في مكائنها سباما
ألا بل فاسُجدي حمداً وشكراً لمن أحيالكُ أشتاتاً جاما

فأيها يا أبا الأطوادِ إليها تحيَّةُ زائرٍ بالحُبِّ ضاها (١)
تباركتِ السماءُ بما أفاقت عليك، فجمَلتِ هذي الربَّاءُ
نومُ عيونها ظمأى عطاشا ونقطف شهدها غرثى جياها
فأيقظ روجي الوسنان يصحو وأطلق من ذخائرِك اليراءُ
فلستُ أشيمُها نبتاً وماءً وإن راقحت محاسنها طباعا
أبني لي ما تضمن في سناها وكيف يشفّ خلقاً وابتداعا
وهب لي سرّها فيما تناعى شخوصاً بالحياة تُرى شرّاعا
وأيقظ قلبي اللفهان أيقظ فغنّ وجدانه أريدُ المتاعا
أمرّ عليك بالنجوى، وأنسى لأبصرُ فيك آفاقاً رتاعاً (٢)
فما كنتُ الحديثَ برقُ لفظاً وينفثُ في مقاطعه الخداعا
ولكن فيك أرواحٌ تلاقي خيلاً كالوميض شبا شُماعا
لتبعثها العواطفُ أين كانت هيأماً أو حنيناً أو هُلاعاً (٣)
أسيرُ برسمها جذلاً طروباً وأنزحُ عن معالمها وداعا
سلاماً، فالصباح أراه يدنو ليُسدِّلَ فوق جنّتيك القناعا
لقد آن الرحيلُ، وكلُّ وصلٍ تبدّدَ فرقةً وغداً نزاعاً (٤)
فإن فارقتُ وجهك لست أنسى مدى الأيام، حسنك واليقاعا
القاهرة

(١) ضياح — انقصر المطر وفاح (٢) رتاع — ج راقع، المكان الحبيب

(٣) الهلاع — الجزع الخوف (٤) النزاع — الحنين والتوق

الأطفال المشردون

ترافع المحامي عن المتهم ، بما أُوتِي من فصاحة لسان ، وقوة برهان ، واختلت المحكمة للمداولة . ثم حادت الى قاعة الجلسة ، وأعلنت حكمها وهو يقضي بإحالة الأوراق إلى مفتي الديار ، ومعنى ذلك الحكم على المتهم بالإعدام شنقاً ، وفقاً للقوانين المصرية .

وخرج الجند بالمحكوم عليه ، وهو أصفر الوجه ، زائف البصر ، لكنه ثبت الجنان ، وكان يسير مدفوعاً بغلظة الحراس وفضاظتهم ، فهذا يدفعه ، وذلك يلكمه ، وآخر يستحثه ، وغيره يلكزه ، وهو مستسلم لهم ، لا يبدي مدافعة أو ممانعة ، كأنه فقد الحس والشعور ، والناس يبتعدون عنه ، ويفرون من وجهه ، ويتنجسون بسرعة عن طريقه .

وكان المتهم شاباً في السابعة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، نحيل الجسم ، قوي البنية ، وسيم الحياء ، لولا ما انطبع على أساريه من يبوسة وجهود ، مما جعل نظراته حادة قاسية ، لا تنم عن عطف ، ولا تطف عن حنان .

وعندما وصل الى باب المحافظة الخارجي المطل على الميدان وقف فجأة لا يتحرك من مكانه على الرغم من دفع الجند ولسكزهم ، وأخذ يحملق بعينيه ، وقد اعترته رعدة شديدة اهتز لها كل جسمه ، وطفق يتطلع إلى رهط من الصبئية والصبايا تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعاشرة ، وهم يتراحون حول صندوق القمامات والنفايات ، ويتدافعون بالأيدي والمناكب لالتقاط ما يجدونه فيه من كسرة خبز قدرة ، أو عظمة عليها مسحة من اللحم ، أو قشرة برتقال عالق بها بعض اللب ، أو قطعة بطاطس علتها الأوساخ والأدران ، فيلتقمونها بشراهة ، ويلوكونها بشهية ، ويزردونها بلذة ، كأنهم يأكلون أطيب الطعام ويتذوقون أشهى المأكول ، وهم يزاحمون الحرارة والكلاب التي تبحث مثلهم فيما تبثر من الزبالة ويسلبونها ما تعثر عليه من الفتات ، وبقايا المأكولات ، ويصخبون ويضججون ويضحكون مع ما بهم من جوع ، ومسغبة ، وما هم فيه من شقاء وبؤس .

وكانوا عراة الرؤوس ، حفاة الأقدام ، لا يستر أجسادهم غير ثياب ممزقة بالية تبدو من خلالها عورات الكثيرين منهم ، وكانت وجوههم ذابلة ليس فيها أثر من نضارة الطفولة يعلوها شحوب واصفرار ، وتخللها أخاديد من القذارة والوساخة ، وأعينهم مطفأة النور لا تنم عن ذكاء ولا فهم ، كأنها أعين حيوانات دنيئة ، وأجسامهم نضيضة اللحم ، لم يبق منها الطوى سوى جلد على عظم .

وقف المحكوم عليه يتأمل هذا المنظر المتجلي أمامه ، وهو شارد الفكر ، ذاهل العقل ، حتى أخرجه من سباته زلعة شديدة من حذاء الجندي الثقيل في ردفه كادت تلقيه أرضاً ، لكنه لم يستدر ولم يهتم بمعرفة من ضربه من الحراس ، لاعتياده على مثل هذه الماملة من جميع الجنود ، بل رفع يديه المصفدتين بالحديد ومسح بظهر كفه دمعة ترقرت في عينه . ثم لوى بصره عن الصبية ، وسار متبوعاً بالجنود وبسائر المسجونين .

وعندما هم بركوب العربة التي سستله ورفاقه إلى السجن ، إقترب منه زميل له قد فرست نفسه بالإجرام ، وارتاضت على أنواع المنكرات وضروب الآثام ، حتى صلدت عواطفه ، وتحجرت مشاعره ، وهو منذهل من بكائه ، لعلمه برباطة جأشه ، وقوة جناحه ، وهمس في أذنه قائلاً : « إيه دا يا محمد ، جمد قلبك ، فالسجن مأوى الرجال ، والمشنقة مرجحة الأبطال » . فأجابه الشاب بصوت مختنق من التأثر : « سيان عندي حياتي أو مماتي ، وأنا أفضل الرحيل عن هذه الدنيا التي لم تدر لي سوى التمس والشقاء ، ولا تظن أن بكائي على نفسي ، بل على هؤلاء الأطفال الذين يتزاحمون حول صندوق القاذورات ليجدوا فيه من النفايات ما يسدون به جوعهم ، فقد أشجنتي رؤيتهم ، وأعادت إلى ذاكرتي أيام طفولتي بمرارتها وعلقمها ، وساقص عليك ما كابذته في حياتي القصيرة من العذابات والآلام عند ما مجلس في العربة لتعنيه من بعدي ، ويكون عبء وعظة لسواي . من الذين يجنون على أبنائهم ، دون أن يكون لهم ضمير أو وازع .

ولما أخذ السجناء أمكنتهم في العربة لبث محمد برهة مستغرقاً في أفكاره ، ثم زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه واستتلى حديثه قائلاً : ما أتعس الطفل الذي يشب بعيداً عن حنو أمه وعطف أبيه ، وما أشقاء إذا كان والداه من الظلمة العتاة المجردين من كل عاطفة الأبوة ، فقد شاعت صروف الدهر أن لا يعي ذهني ، حالماً بدأ يحس ويشعر ، إلا الشقاء الذي ليس بعده شقاء ، فعند ما فتحت عيني في هذا الوجود ، وأنا لم أستقم بعد الثالثة من عمري ، لم أر لوالدي آراً ، بل ألقيت نفسي عند امرأة عجوز ، شرسة الطباع ، شكسة الخلق ، لا قلب لها يرق ، ولا فؤاد يرحم ، فقد طلق أبي أمي وهي

حامل بي ، وذهب إلى حيث لا يدري أحد بمكانه ، ولم يكد ناظري يكتحل بنور هذه الحياة حتى تزوجت والدتي سواء ، فكنت حجر عثرة في سبيل هئائها ، لأن زوجها لم يكن يطيق رؤيتي ، فكان يسيء إلي وينهال عليّ ضرباً بدون سبب ، وأمي تدافع عني جهد طاقتها ، حتى إذا ضاق ذرعاً بي خسرّها بين نبذه لها أو تركها إياي ، ففصلت الانفصال عني ، وأسلمتني إلى هذه المرأة العجوز لتقوم بتربيتي لقاء أجره معينة تتناولها شهرياً ، وأنا لم أزل بعد في الثانية من عمري . ولكن ما هي إلاّ شهوّر حتى غابت أُمي عن نظري وتركنتي بين يدي هذه العجوز التي عندما رأت انقطاع المال عنها شرعت تعاملني أسوأ معاملة ، وتضربني ضرباً أليماً ، ولا تطعمني في النهار كله إلاّ كسرة خبز يابسة تسكد لا تكفي للإبقاء عليّ ، ولا تكسوفي إلاّ بقطع عتيقة من بقايا ثيابها الخلقّة تلفقها كيفما اتفق ، وتحلبها على جسمي الهزيل ، فلا تمنع عري ، ولا تستر عوري ، ولا تقيني من حرارة الصيف ، ولا من صبرارة الشتاء .

ولما قوي ساقاي على حملي علمتني التسوّل وجمع أعقاب السجائر وبيعها ، ودرّبتني على سرقة ما تقع عليه يدي وكانت تطلقني صباحاً مشبعة إياي بالضرب وطالبة مني أن أعود إليها مساء وفي يدي لا أقلّ من ربع ريال . والويل لي إذا رجعت ولم أستتم هذه الجزية المفروضة لأنها تنهال ضرباً بالعصا على جسمي العاري الضعيف حتى تحذف فيه آثاراً دامية ، فيغمى عليّ من الألم ، وتلقيني في ركن الغرفة السوداء بعد ما تجردني من النقود التي جمعتها ، وتجلس على فراشها ويدها العصا تتطلع إليّ . كما يتطلع الوحش إلى فريسته الدامية ، معتزّة بإعادة الكرة حالما أفيق من غيبوتي . فكنت ألبث وقتاً طويلاً وأنا في غشيتي حتى إذا عاد إليّ جسسي وشعوري أطلع إليها بطرف خفي ، فإذا رأيته تترقبني ظلمت في مكاني لا أتحرك إلى أن يغلب عليّ النعاس والتعب والألم ، فأنام متوسداً الأرض الرطبة ، نوماً متقطعاً يتخلله الفزع والهلع ، والهواجس والوساوس .

وحالما يتنفس الفجر توقظني بالرفس والسك ، وتلقي إليّ بكسرة الخبز كما تلقى إليها كلب ، وتشيعني بالتهديد والوعيد ، فأخرج لمزاولة عملي ، وأنا في حالة تنقطع لها نياط القلب من الضعف والهزال ، والجوع والعري ، حتى إذا كان ذات يوم ، وقد غادرت الحجرة عند زرّ السجّسّر ، أطلب ما أسدّ به جشعها ، دفعاً لاذاها ، وأنا متأبط قطعة الخبز اليابسة ، متزمل ببقايا ثياب لم تترك الأيام منها غير مِرزَق تتدلى على جسمي ، فيبدو منها صدري الهزيل الذي تعد أضلاعه ، ويظهر من تحتها ذراعي الرفيعان الملتصق جلدهما بعظمهما ، وساقاي الدقيقتان اللتان تحملاني مترنحتين ، مررت بقصر منيف محيط به حديقة

غناء ، في مدخلها قبالة السلم الرخامي كشك صغير من الخشب رايض فيه كلب ضخم الجثة هائل المنظر مربوط بجنزير ، وقد انحدر عبد أسود حاملاً طبقاً فيه لبن مغلي يتصاعد منه البخار فوضعه أمامه وقفل راجعاً ، فغمس الكلب في اللبن منخريه بجذره ، ثم ألقى على ذنبه انتظاراً ريثما يبرد اللبن .

وكان الوقت شتاءً ، والطقس بارداً زمهرياً ، يقضض من قره الجسم المدثر بالصوف والفرء ، فكيف بالعاري مثل جسمي الذي لا تستر أجزاء منه سوى أطوار بالية مهلهلة ، فتطلعت الى طبق اللبن وقد جمحت عيناوي ، واندلع لساني ، وجرى لعابي في في على الرغم من ببوسة حلقي الذي لم يذق في حياته لبن طعماً ، فطاش عقلي ، وفقدت اتزاني ، واندفعت من باب الحديقة المفتوح ، وأسرعت الى الطبق ، فهجم على الكلب الكاسر وأنشب أنيابه في كتفي العاري ، لكنني لم أعبأ بالألم من فرط الجوع والبرد ، وجثوت على ركبتني وأمسكت الطبق بكليتي ورفعته الى في وطفقت أعب اللبن عبساً غير شاعر بسخونته . فلما رأى الكلب لهفتي وجوعي ، فطن بغريزته الى حالتي البائسة ، فتخللت الرحمة قلبه ، وارتدني ووقف بعيداً وهو يبصص لي بذنبه ، ويتطلع إلي بمطف وحنان ، وقد أبرقت عيناه الصغيرتان المملوءتان ذكاءً ، كأنه يقول لي : « اشرب فلا خوف عليك ، لأنك أحوج مني الى ما يقيتك ويدفئك » .

وكانني بالحيوان أرق قلباً من الانسان ، إذ بينما أنا مقبل بكليتي على اللبن أتجرحه بشراة مناهية ، سمعت من ورائي صوتاً يصيح « يا حرامي » وشعرت بضربة سوط شديدة وقعت على أم رأسي فسقط الطبق من يدي وانكفأت على وجهي من شدة الألم ، وأخذ الدم يتدفق بغزارة من جرحي .

وكان الضارب شاباً في العشرين من عمره ، أنيق الملبس ، يتدثر بمعطف ثمين من الجوخ ، تحته بزة أفريقية من غالي النسيج ، وفي يديه قفاز من الجلد ، وقد قبض على سوط مدب الرأس ، فأنحنى فوقي وقال بحدة : « أتسرق أيها الوغد وأنت في هذه السن ! » وثم بضربي ثانية ، لكن الكلب الذي أنف من هذا الظلم هرّ هريراً قوياً ، وهجم على صاحبه مكشراً عن أنيابه ، وحوال بينه وبينني ، فصاح الشاب مغضباً : « ويحك يا بوبي أهرّ علي ! » لكن الكلب لم يبال به ، بل لبث في مكانه ومال عليّ وشرع يلحس جرحي بلسانه ، كأنه يؤاسيني مستغفراً مني عن الجور الذي ألحقه بي سيده . فنادى الشاب خدمه الذين لبوه جماعة ، وأمرهم بطرحي خارجاً ، وهو ينحي عليهم باللائمة لتركهم باب الحديقة مفتوحاً ، فحملني اثنان منهم من يدي ورجلي وألقوني في الشارع وأغلقوا البوابة

الحديدية ، فزمت مكاني دون أن أجد في نفسي قوة على مبارحته ، وكان الزيف قد انقطع غير أن الألم مازال شديداً ، فأسندت رأسي الى جدار لكنها ما عتمت أن هوت على الأرض ، فالتفت على نفسي وأنا التمس الراحة مما أعانيه ، ولكن بدون جدوى ، لأن الألم كان يزداد من دقيقة الى أخرى .

وكانت الشمس قد بدأت تشرق ، وأشعتها الشاحبة تنسل من بين السحب المغشية وجه السماء ، فشعرت بدفء خفيف تحت لعابها واستسلمت للسكون .

وما هي إلا فترة من الزمن حتى أيقظتني من سباتي رفسة عنيفة من حذاء ثقيل اهتز لها كل جسمي ، فأفقت مذعوراً وتطلعت فيما حولي فألفت جندي الدورية واقفاً ينهرني بالسباب والشتائم طالباً مني السير ، وعدم « شغلي » الطريق ، فصعدت للأمر ونهضت متحاملاً على نفسي ، وطفقت أسير مترنحاً كالشارب الثمل ، وأنا اعتمد الجدار بيدي لكي لا أهوي الى الأرض ، حتى إذا مررت بصيدلية التمس من صاحبها الرأفة بحالي وضمد جرحي ، فطرطني شر طرد .

طاودت سيرى وأنا أدلف ، وقد حبست نفسي عن الجزع ، لاستمد من عزمي قوة تساعدني على التطواف ، حتى أصل الى مكان خرب أوي اليه ، فأبصرت على مدى قريب منزلاً متهدماً قد زال سقفه وبقيت آثار جدرانها فهزلت اليه بقدر ما تسمح به حالتي وانسلت بين أطلاله حتى أصبت ركبناً قد أنارت أشعة الشمس الشاحبة فسكنت اليه ، وتمددت فيه ، وأنا أتدخل في بعضي وألثف بأطماري طلباً للدفء ، وما لبث النوم أن ران على أحفاني فاستسلمت اليه لأجد فيه مخففاً لآلامي وأوصابي .

وشاءت الأقدار ألا تريحني ولو فترة من الزمن ، فأفقت مرعوباً على تساقط المطر ، ووجدت السماء قد اعتكر لونها ، وفاضت ميازيها ، والرعد يلعلع في الفضاء ، والهواء يهب بعنف وشدة ، فأسرعت بالنهوض وقد ابتلت أطماري ، والتصقت بجسمي ، وسرت وأنا اشتد في عدوي باحثاً عن ملجأ يقيني عادية المطر المنهمر بغزارة ، والتجأت الى طنف يبرز من عمارة فاستترت به من وابل الماء ، ولبثت واقفاً أقرب المارة ، وأنا انتفض من البرد ، وارتج من الألم حتى انقطعت خيوط الغيث ، وانقشعت الغيوم ، وبدت الشمس ببهاؤها فازدحت الشوارع بالسابلة ، وجلهم من الصبية ، وهم يسرون أفواجا حاملين الحلوى واللعب وقد ارتدوا حلاً جديدة زاهية ، وركب بعضهم العربات والسيارات وهم يغنون ويصفقون فسألت صبيّاً يماثلني حالة عن خطب هؤلاء ، وعن سبب خروجهم في أبهى الثياب وأجملها ، فأجابني بأنهم يحتفلون بعيد الفطر .

عيد الفطر؟ وما هو هذا العيد؟ لم أسمع بعد بالأعياد ولم أحتفل بها قط، لأن كل حياتي ظلام في ظلام. لم يبدُ فيها بصيص من الضوء، ولا نسالة من الفرح والسرور. فالأعياد لا تعرفني ولا أعرفها، فهي بمنأى مني، وأنا بمنعزل عنها.

ومرَّ بي فوجٌ من الأطفال وهم فرحون يأكلون الحلوى والكمك، فددت يدي إليهم مستجدياً لأن الجوع أخذ يقرس معدتي، علَّني أذوق طعم الحلوى والكمك اللتين لم أعرف بعد لهما مذاقاً، فتنفَّسوا في وجهي الشاحب النحيل، وقد رسمت عليه الأقذار والدماء خطوطاً وتعاريج، وتأملوا في عيني اللتين تشعان ببريق الحمى، وتطلعوا إلى ثيابي الميزق المبللة، والملتصقة بجسمي، دون أن تستر عورتي، ثمَّ نظر بعضهم إلى بعض هلَّمين وجلين، وأطلقوا سيقانهم للريح، كأنهم سرب غزلان يفر من وحش مفترس. لم أكن أعرف بعد أن ثمة إلهاً، ولا أدري كنه الحياة، ولا سر الوجود، وكل ما أشعر به وقتئذٍ أني موجود، وإني أتعذب وأتألم، بينما غيري من الأطفال ينعمون ويفرحون، ويمشون مرفهين مدللين، ومع ذلك رفعت عينيَّ نحو السماء بحركة لا أدري مبعثها، وأزلتها إلى الأرض وأنا أشعر بالجفاف وظلم، لا أحيط بأسبابهما، ولا أدرك سرهما، لكن إحساسي الذي تنبه قبل أوانه جعلني أسأل نفسي عن السبب الذي من أجله يوجد صبيان في رخاء العيش وليانه، يسارع إليهم الهناء، وتكلاهم السعادة بعنايتها، وتؤاتيهم الدنيا على رغائبهم، وآخرون في سنهم، قد تنكرت لهم الحياة، وتجهَّهم لهم وجه الزمن، فذاقوا من شقاء العيش، ومرارة الوجود ما يكاد يدك صرح هياكلهم، ويودي بحياتهم الغضة اليافعة.

سؤال جهدت نفسي في تعرف سببه، وسرَّ أفرغت ما في وسمي لأدرك له حلاً، لكن عقلي الصغير القاصر تضاعل دون ذلك.

وكانت شوكة الجوع يشتد وخزها في معدتي، وأنا أدافعها وأدفع ألم كفتي وجرح رأسي بالتلهي في تصفح الوجوه، وإجالة الطرف فيما يبدو حولي، فأبصرت بجانب خانة جلس فيها أناس من جميع الأجناس، إلى موائد عليها من الكؤوس وأصناف المأكول ما زاد في جوعي وألمي، فتنقذت جيبي لعلِّي أعثر فيه على فتات من الخبز لكنني لم أنظر بفطنة واحدة، لأن جيبي كان مخزقاً كالمنصفاة، لا يستقر فيه شيء مهما صغر ودق حجمه، وقد أضمت كسرة الخبز التي كنت متأبطها في الحديقة عند عرين الكلب.

وقفت عند باب الحانة أنظر إلى من فيها وقد أجمعت رؤية الطعام نار الطوى في جوفي وزادتها استهواراً، وصحت عزيمة على التسلل إلى الداخل عساي أصيب ما أمسك به رمقي،

وتنقلت بين الموائد متطلعا بشراة ولهفة ، إلى ما أبقاه محتسوا الحجر في الطباق من القطع والفتات ، حتى إذا انتهيت الى مائدة قد فرغ الجالسون من أمرها وغادروها ، مدت يدي المرتجفة الهزيلة الى ما رسب في الصحون من الطعام وأسعرت به الى فمي ، وأنا أزدرد دون مضغ ، فأنهال الموجودون هناك علي بالزجر والنهر ، وشرع بعضهم ينادي خذ الحاة ليقصوني من حضرتهم ، وليبعدوني عنهم لأن منظري المزري القذر قد سبب لهم تقززا ، وعكس عليهم صفو الهناء في احتساء الحجر وشرب المسكر ، فأقبل الخدم وطرّدوني بالدفع والسك وألقوني خارجا ، فتامست طريقي وأنا أسير وجسمي يهتز كقصة مرضوضة ، وساقاي لا تقويان على حملي ، حتى إذا وصلت الى منعطف زقاق ، شعرت بأن الأرض تدور بي ، فسقطت على وجهي وغبت عن الوجود .

مكثت في غشيتي مدة غير وجيزة ، حتى أفقت على أصوات تناديني ، وأيدٍ تحركني ، فظننت لأول وهلة أن المعجوز توقظني حسب عاداتها ، فنهضت مسرعا خشية أن ينالني إذاها إذا تباطأت ، غير أن الألم التي بي ثانية على الأرض ، فطفقت أتفّرّس في الوجوه المائلة علي والمحدقة بي ، فوجدتها وجوه صبيان من صنوي وشاكتي ، فنيابهم رثة بالية ، وسحنهم غبراء شاحبة ، وقذارتهم تماثل قذارتي ، وأعمارهم تتراوح ما بين الخامسة والعاشرية ، وهم مقبلون علي بوجوههم ، فرحون ببقياي ، جذلون بما سيخصوني به من العطاء والمنحة ، أنا البائس المسكين مثلهم ، إذ لا يعرف كنه الفقر إلا من ذاق جوفه ألم الجوع ، وتحمل جسمه العاري حر الصيف وبرد الشتاء ، وشمر حياؤه بمذلة السؤال ، وانكسرت نفسه تحت وطأة الضمة والهوان .

جلس الصبية حولي عندما بدا لهم عجزي عن النهوض ، واستطلعوني أمري ، فقصصت عليهم تاريخ حياتي القصير ، المفعم بالزايا ، المليء بالآلام ، وهم سامعون مني ، مصفون الي ، حتى إذا استفرغت ما عندي ، رثوا لحالي ، وطيبوا خاطري ، وناولني أحدهم برتقالة أكلتها بجزء من قشرتها لشدة لهفتي على تسكين ألم جوعي ، وأروني نقودا فضية كانت في جيب أكبرهم سنبا ، وأكلأ شهيا ملفوفا بورق ، ثم حملوني الى الصيدلية التي قصدتها صباحا فطرّدني صاحبها ، وأعطوه ربع ريال وطلبوا منه تنبيهي وضمد جروحي ، فلبى الأمر هاشا باشا عندما قبضت يده على الشلن ، وقدم لي كوبة فيها أدوية منعشة ، وغسل جرح رأسي ، وعضة كتفي وضمدها ، فافتعشت نفسي وردت الي روحي ، وقويت رجلاي على حملي ، وسرت مع رفاقي الذين اعترموا احياء العيد أسوة بسواهم من الأطفال الأغنياء المترفين ، فلئن أبت عليهم الانسانية أن تدخل السرور على

قلوبهم طوعاً ، في ذلك اليوم ، فقد أخذوا منها قسراً وبالسرقة ما ساعدتهم على نيل أمنيتهم وأدراك مرامهم .

انتحينا جانب حديقة خربة ، لم يبقَ منها غير سور منهدم ، يحيط ببعض أشجار متفرقة هنا وهناك ، وافترشنا الغبراء ، وبسطنا طها مندا المؤلف من خبز بلدي وسمك مشوي وطعمية « وحلاوة طحينية » ، على مماط من ورق الصحف القديمة ، وأكلنا هنيئاً وشربنا من حفر في أرض الحديقة ملائى بماء المطر ، وبعد ما خلع عليّ زملائي من ثيابهم ما كساني بعض الشيء وستر من عورتى ، تمددنا على الأرض ، ونمنا نوماً هادئاً حتى الأصيل وعند ما أقفنا جلوسنا حلقة نقسامر ، وقد سرى عني بعض ما كان بي ، فأقبلت بكليتي عليهم ، وأنا متن لهم ، مغتبط بصحبتهم . فعرضوا عليّ مفارقة العجوز التي تسومني العذاب الأليم ، والانضمام الى زمريهم ، فهم يعملون لحساب شخص ، وان يكن أقل شراسة ، وأخف جشعاً من تلك ، لكنه شديد الوطأة عليهم ، فكل منهم ينقده جعلاً مهيئاً مساء كل يوم عند أوبته ، غير أن الحال ستتغير منذ الآن ، لأنهم أصبحوا عصبية باتفاقهم مع أحداث على نطمهم ، أكبر منهم سناً ، قد تحرروا من ربة محتكرهم ، وغدوا يستغلون « مواهبهم » لأنفسهم ، وهم ذوو سطوة وبأس في عالم الأجرام الخفي ، فاذا سؤلت للسيطر عليهم نفسه الشريرة أن يداوم في ارهاقهم وظلمهم ليكون ذلك وبالاً سريعاً عليه ، إذ لا يلبث رفاقهم الكبار أن ينتقموا منه شر انتقام ، بعد ما يعلنونه بذلك ، فلهذا كله يرى أولئك الاطفال أن انضم اليهم لترفع حالي ، وينعم بالي .

وقد وقع كلامهم من نفسي موقفاً حسناً ، فأجبتهم الى ما يريدون وأنا جذل فرح وعشت معهم مقاسماً إياهم ضراءهم ، اذ لم يكن لهم سرّاء ، لأن تبدل السيد لم تبدل البؤس ولم يغيره ، وكل ما في الأمر انه خفف قليلاً من حدّته ، فالرجل كان جباراً عاتياً ، يبادرنا بالشر لأقل سبب وأتفه ، غير أنه لم يكن في شراسة العجوز ، ومع كل فقد كنا جماعة والظلم إذا عم ، ورأى المرء من يأنس اليه في محنته ، سهل عليه احتمال المغارم ، مهما اشتدت وقوت .

مكثت على ذلك شهراً كاملاً ، حتى اذا كنت ذات ليلة سائراً أجمع أعقاب السجائر ، واستندي الأكف ، وأسرق ما تصل اليه يدي ، كلما وجدت لذلك سبيلاً ، وقد كان يومي مشرقاً ، لأنني جمعت فيه ما يقارب الريال ، قابلتني العجوز على حين فجأة ، فانقضت عليّ انقضاؤ الأسد على فريسته ، وأمسكت بذراعي ، وأمعنت في ضرباً ، وهي تهدر وتزجر وتصبح ، حتى تكأ كأ علينا المارة ، فأخبرتهم بأنني ابنها وقد هربت من دارها على الرغم

من شدة اعتنائها بي، وسهرها على تقويم اعوجاجي، وما فتئت منذ ذلك الوقت وهي تبحث عني وتجد في أترى حتى عثرت عليّ الآن. ثم أهوت بيدها على جبي، عند ما طرق مسمها زنين النقود، وهي تجذبني وتدفعني، فأخذت حصيلة اليوم كلها ودستها في عبا، وجرتني من ذراعي، وهي توسعني ركلاً برجلها كلما تباطأت في السير، وأنا لا أجرؤ على الممانعة، حتى وصلنا إلى غرفتها السكائنة في سفح تلول زينهم البعيدة عن العمران، فطرحني أرضاً وقبضت على عصا غليظة، وهي تقول بفرح وحشي: « الحمد لله الذي مكنتني منك، فلن تقل بعد الآن من يدي » وما رحت تضربني وأنا أصبح وأستغيث حتى شفت غليلها مني. نمت نوماً متقطعاً تساوره الأحلام الخفيفة، وأفتت في منتصف الليل وحاولت اختراق حجب الظلام ببصري، لاتبين مكان العجوز لكنني لم أستطع، غير إني سمعت غطيطاً متسقاً، فأيقنت منه بأن العجوز نائمة، وعزمت على الهرب لأنني أعلم بأن باب الحجرة لا قفل له، ولا يغلق بإحكام، فإذا ما فتحته بتؤدة لن يسمع له صرير. فسرت على أطراف أصابعي، محاذراً الاتيان بحركة حتى وصلت إلى الباب، فألفيت العجوز ممددة عرضاً على عتبته لتحول بيني وبين الخروج، فنكصت على عقبي، ولزمت مكاني، وأنا حائر في أمري، لا أدري ماذا أفعل.

وبينما أنا أتردد بين الإقدام والإحجام فتح الباب بحذر، وبدأ منه شعاع قائم صوب إلى أنحاء الغرفة حتى استقر عليّ، فانتصبته واقفاً، وأسرعت إلى مصدره متوسماً فيه الفرج، فقبضت يد قوية على ذراعي وسحبني خارجاً متخطياً العجوز التي أفاقت وأخذت تولول طالبة النجدة، فانقض عليها شخصان وكسما فيها وألقياها على الأرض، وهي تنهبط بين أيديهما محاولة التخلص، فتركها غير حائى بها ولا مكترث، لما سامتني من العذاب، وأسرعت الخطى ممسكاً بيد قائدي الذي شرع يطمئنني، فعرفت فيه أحد الرفاق الكبار الذين يتولون الصغار منا برعايتهم، ليميطوا عنهم أذى مستغليهم.

وفي الحال لحق بنا الاثنان اللذان صرعا العجوز، وأخبراني بأنها لن تزجني فيما بعد فدب الرعب في قلبي لأنني فهمت أنهما قضيا عليها، لكن الشفقة لم تعرف السبيل إلى فؤادي لما عاجلته من البؤس والشقاء على يديها.

سرت مع الرفاق الكبار الذين نالهم التعس، وحلت بهم نوازل المكروه، بمقدار ما بلغ إليّ منها لكنهم عند ما شبوا، واشتدت سواعدهم، والتمسوا ما يصلحون به فلم لم تعذب عن فكرهم طفولتهم التعسة المعذبة، ولم ينسوا أشباههم الأطفال الذين يعانون

كل ضروب الرق والعبودية ، فألقوا فيما بينهم تلك الجمعية التي أخذت تسهر على الصبية الصغار وتدافع عنهم ، وتقتصم لهم من يقسو عليهم ، ويسومهم جوراً وظلماً .

حلت في دارهم حيث ألفت عدة أطفال في سني وما فوقه ، فأخبرني أحدهم بأنه رأي عند ما ألفت العجوز القبض عليّ ، وتبعني حتى علم بمقرّي فأسرع بنقل أمري إلى الرفاق الكبار الذين سارعوا لأغاثتي ، وأنقذوني من مخالب تلك العجوز القاسية .

عدت عندهم إلى سيرتي الأولى ، فكنت أجمع أعقاب السجائر وأبيعها ، وأستجدي ، وأسرق ما أستطيع سرقة ، وفي الليل عندما أعود إلى مأواي لديهم أدرب وسائر الأطفال على نشل حافظات النقود من الجيوب ، فإذا أعيانا أمر إنسان ، واستعصت علينا سرقة حافظته ، عمدنا إلى شق جيبه بمشرط واستولينا على ما فيه .

وكانت هذه الطريقة في بدء أمرها ، من أشق شيء عندي ، لأنها تتطلب مهارة وخفة يد ، لا يتسنى الحصول عليها إلا بعد مران طويل ، فكان الرفاق الكبار يدرّبونا بصبر وجلد بأن يملأوا طسّتا ماء ، وينشروا على سطح الماء ورقة طافية ، ويطلبوا منا قطعها بمبضع حادّ دون أن تغطس ، أو أن يبتل ظاهرها ، فدأبت على ذلك حتى قتلتها مراساً ومعالجة ، ولم يمض عليّ طويل زمن حتى برعت فيه ، وبزرت سائر رفاقي الأطفال .

كلفت بالصوصية ، وأولعت بالنشل ، لأن كلاهما ينيلني ، من جهة ، ما أصبو إليه من مال ، ومن جهة أخرى ، ما يساعدني على الإضرار بالناس ، والإنتقام من الإنسانية التي بادأتني بالشر ، حالما تفتقت عيناى لنور هذه الحياة .

وما برح المجتمع يناصبني العداء ، ويصليني حرباً شعواء حتى تأصلت في نفسي كراهية البشر ، فأصبح لا يلذ لي غير مد يد الأذى لسواي تشفياً منه وانتقاماً .

وما زلت على هذه الحالة ، وأنا كلما تقدم بي العمر إزداد خبرة ودراية بفنون السرقة وأساليب النشل ، فلم أترك مجهوداً إلا بذلته ، ولا وسعاً إلا استفرغته ، حتى صرت من أكبر اللصوص ، ومن أعظمهم جرأة ، وأوسعهم حيلة ، ولكن ذلك لم يكن ليظفيء جرة غلي وحقدني ، لأن سرقة المتاع ، وتخفيف عبء الجيوب من المال ، لا يثقلان العوائق ، ولا يصيبان الإنسان في صميمه ، فصحّ عزمي على مبادرته بالسوء في جسمه وحياته ، ولذا لجأت إلى سفك الدماء ، وإلى القتل بشناعة ووحشية ، فكنت أفتك بالناس وأنا رابط الجأش ، ثابت الجنان ، دون أن يختلج قلبي بأية عاطفة من الحنان ، بل كنت أقبل على ذلك بلذة متناهية ، مستعذباً حشرة الغير ونزعهم ، مستطياً آلامهم وعذاباتهم ، منتشياً من منظر دماهم السائلة التي كانت تنزل على فؤادي برداً وسلاماً ، حتى

كنت أقتل لسبب ولغير سبب ، فاذا ما اشتدَّت وطأتني في مكان ، وضجَّ أهلوهُ مما نزل بهم ، رحلت إلى سواه وأنا أبذر الموت أينما حللت ، حتى أثقل أمري الحكومة ، وعجزت عن إيقافي عند حدي ، ومنع أذائي وضري ، لأنني كنت أفلت من الهواء ، لا أعلق في حبالتها مهما أحكت حبكها .

ويتبادر الى الأذهان أن القتلة لا ضمير لهم يبكثهم على منكراتهم وآثامهم ، غير أن هذا خطأ يذهب إليه من يأخذ الأمور على علائها ، ويقع فيه الذي لا يتعمق في درس العواطف البشرية ، فكنت إذا ما خلوت بنفسي عقب كل جريمة ارتكبتها ، شعرت بضميري الغافي يستيقظ من سباته ، ويعتقني على موبقائي ومنكراتي ، فكنت أبين له ما حاق بي من الظلم منذ ولادتي حتى وقتي هذا ، مندداً بتصرفات المجتمع معي ، مبرراًفعالي ، محبذاً أعمالي . فكان ضميري يتعامل قليلاً لكنه لا يلبث أن يعود إلى سباته .

وما زلت أنتقل من جريمة شنعاء الى أخرى نكراء ، ومن إثم شديد إلى إثم أشد منه وأوقع ، دون أن تسرّوى نفسي من الدماء المرافقة ، بل كانت تتوق دائماً الى الفتك والقتل حتى إذا سطوت ذات ليلة على دار وجيهه وفتكت دون رحمة ولا شفقة بأسرته كلها ، المؤلفة من زوجة وشابين وصبيتين وطفل رضيع ، اعتقلت في المنزل قبل أن أستطيع الإفلات لأنني ، وإيم الحق ، لم أردّه ، فقد عافت نفسي الحياة ، وضقت ذرعاً بالوجود ، ورأيت الاستسلام بدون مقاومة ولا ممانعة ، رغبةً مني في الرحيل عن هذه الدنيا التي لم أفل منها سوى الشقاء والتعاسة ، ولم أجد فيها طيلة حياتي غير ظلم الانسان لآخيه الانسان .

وقد أقررت للمحقق بكل آثامي ومنكراتي ، ورجوت القضاء الحكم عليّ دون شفقة ولا رحمة ، لأنني عشت ولم يعرف قلبي الشفقة ولا الرحمة ...

هذا هو تاريخ حياتي ، المفعم على قصصه بالحوادث الجسام .. إن مروّعاته ليست وفقاً عليّ وحدي ، بل هي نفس ما سيصيب كلا من هؤلاء الأطفال ، الذين أبصرناهم حول صندوق النفايات . والذين يملأون شوارع القاهرة وأزقتها وطرقاتها .

إن قلبي يتقطع حسرة عليهم ، لما يخبئه لهم الزمن من الرزايا والخطوب ، وسيكونون جميعاً مثلي حرباً على الانسانية والمجتمع ، طالما أن هناك آباء لا قلوب لهم ، وأمّهات تجردن من كل عاطفة حنان على فلذات أكبادهن ، وحكومة لا تبالي بهؤلاء الأطفال ولا تعالج مشكلاتهم الحيوية ، وأغنياء لا همّ لهم إلا ملء بطونهم ، وإشباع ملذاتهم .

(١) معهد سميثسونيان

Smithsonian Institute

يوجد بمدينة واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية معهد علمي يُعرف بهذا الاسم .
قام منذ أكثر من قرن بدور خطير في خدمة العلم والعلماء وتمهيد سبيل الدرس والثقافة
للباحثين ومحبي الإطلاع .

وهو من أقدم المؤسسات التي قامت بمال الأفراد . وصاحب الفكرة عالم انجليزي يدعى
المستر جيمس سميثسون James Smithson الذي أوصى قبل وفاته بكل ثروته البالغ قدرها
خمسة ألاف دولار للحكومة لإنشاء معهد علمي عام . ولم يحدد أغراضه تفصيلاً بل أجمل
ذلك في « ان الغرض منه هو العمل على توسيع دائرة المعارف والعلوم بين الناس عامة » .
فتم تأسيس المعهد في عام ١٨٤٦ بواسطة الحكومة قياماً برغبة صاحب الهبة على
خير ما يرام . وحمل المعهد منذ ذلك الحين منار العلوم والمعارف في أميركا الشمالية . ولقد
كان حقاً متحفاً مهنياً ، أتاح لنفر كبير متابعة البحث ومزاولة الدرس وإيماء الثروة
العالمية حيث عكف المشتغلون فيه على دراسة مظاهر الطبيعة ومعالجة شؤونها وكشف ما
غُمض من نوااميسها وحل ما استعصى من مسائلها ، واثبات ذلك على ضوء العلم الصحيح .
فكان المعهد على مدى الأيام من حسن الأثر في التقدم العلمي لأهل هذا الجيل ما يُقرن
ذكره بالحمد والثناء .

ولم تكن الأفكار وقت تأسيس المعهد مهيأة تماماً لاستساغة مثل هذه البحوث لأن
العلوم وقتئذ لم تكن متصلة الوشائج ولا هي على حال من التألف والارتباط مما آلت إليه
نفا بعد . نعم قد عمد بعضهم إلى حل بعض المسائل الخاصة بالميكانيكا والطب . كما عُنِي
البعض الآخر بجمع مختلف النباتات وطوائف من الفراش والهوام لا لغرض ظاهر أو هدف
معين إلى غير ذلك من المحاولات .

أما المستر سميثسون صاحب الفكرة فقد كان كلفاً بدراسة علم الكيمياء ومعالجة
المعادن فأكب على أنابيب الاختبار وبين يديه مختلف الأحجار لدراستها متخذاً ذلك

كهواية لا كهنة . ولاختباراته وأبحاثه آثار معروفة . وقد التحق عضواً . وهو في سن الثانية والعشرين بالجمعية الملكية .

أما المعهد فيشتمل . عدا قاعات الدراسة وغيرها ، على معارض بها مختلف الأسماك والزواحف والحشرات والطيور والجلود والأحافير ، ونماذج من أوراق الأشجار والزهور وغيرها . وكلها منسقة تنسيقاً علمياً ومعرضة للزائرين . غير أن كثيراً منها محجوز في أماكن خاصة للعلماء والاختصاصيين .

وانضوى تحت لواء المعهد المذكور منذ عهد تأسيسه عشر هيئات فنية وعامة حكومية عملت تحت إدارته واندججت فيه كما عاونته مالياً .

ومن حسن الطالع أن من وقع عليه الاختيار لإدارته كان أوسع أهل زمانه علماً وأبعدهم شهرة في علم الطبيعيات ألا وهو المستر جوزيف هنري الذي عمل على تحقيق فكرة صاحب المشروع وقام بها خير قيام — وهو أول من وضع نظرية التلغراف . وإن كان غيره هو الذي استغلها . كما أنه هو أيضاً المخترع للآلة الكهربائية المغناطيسية وإن نظريته الخاصة بالمغناطيسية الكهربائية كانت إحدى الأسس التي بُني عليها تصميم المحركات والمولدات الكهربائية .

وبعد وفاة المدير المذكور خلفه في إدارة المعهد المستر سبنسر فولرتون بيرد . فعمل هذا على الإكثار من المجموعات الخاصة بعلم الحياة ، حتى أُعتبرت مجموعة المعهد إحدى المجموعتين أو الثلاثة الشهيرة في العالم . لاشتمالها على نماذج معظم الأحياء من الهلاميات إلى الغوريلا . وكلها معرضة للبحث العلمي .

أما مجموعة النباتات بالمعهد فتشتمل على نحو ٢٨٠.٠٠٠ نموذج مختلف الأنواع المعروفة الآن في العالم بما في ذلك الفطريات .

أما الأحياء التي تنتمي إلى فصيلة الزواحف فيوجد منها نحو ١٠٠٠٠ — ومن ذوات الشدني نحو ٢٥٤.٠٠٠ — ومن السلالات المختلفة أقليمياً نحو ١٤.٠٠٠ وكلها مخنطة . كما يوجد في المتنزه الأهلي الذي تدمه الحكومة باعاتها . وهو تابع لهذا المعهد . حيوانات نندية حية وزواحف وطيور كلها معدة لتنقيف الجمهور والباحثين .

وبالمتحف الأهلي التابع لهذا المعهد أيضاً أكثر من ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ نموذج خاص بعلم الحياة وأكبر الأحياء عدداً وأكثرها تنوعاً هي مملكة الحشرات ، فإن ما عرف منها في العالم على وجه التقريب يبلغ نحو ٨٠٠.٠٠٠ نوع ، عدا ما يضاف إلى هذا العدد سنوياً

بما لم يكن معروفاً من قبل ويعد بالآلاف . وهذه ممثلة ضمن محفوظات المعهد البالغ قدرها ٦٠٠٠ ر ٠٠٠ ومجموعة نماذج الطيور تكاد تكون كاملة ، إذ المعروف أن الأنواع الأصلية يبلغ عددها ٨٥٠٠ . وبإضافة عدد الأنواع الفرعية يبلغ عددها ٣٠٠٠ ر ٠٠٠ . وأنواع الأسماك المعروفة من أصلية وفرعية يبلغ عددها ٤٠٠٠ ر ٠٠٠ بالمعهد . وبإضافة هذا العدد إلى ما في المتحف الأهلي منها تبلغ جملة ذلك ١٤٠٠ ر ٠٠٠ نوع

وفضلاً عما في المعهد من معارض وما هو مجهز به من معدات الدرس ووسائل البحث العلمي ، فقد قام منذ نشأته بإرسال بعثات استكشافية بلغ عددها حتى الآن ١٥٠٠ بعثة لارتياح المناطق النائية . وجمع نماذج من النباتات والحيوانات وغيرها للمعهد وهو مجهود له قيمته من الوجهتين العلمية والاقتصادية حتى أن ما في المعهد منها الآن ليعد بحق قاموساً للحياة وتطورها من الطحالب إلى الإنسان . ومن معروضات المعهد هي كل عظام الحيوانات المنقرضة والحالية منذ فجر التاريخ للآن . ومن بينها الدينوصور Dinosaur والديلودوكس Diplodocus . وكان الأخير أضخم حيوان عاش على الأرض إذ يبلغ طوله من قبة رأسه إلى مؤخر ذيله سبعين قدماً وارتفاعه خمسة عشر قدماً . وعلى هذا القياس قد يمكن تقدير وزنه من عشرين إلى ثلاثين طناً . مع العلم بأن وزن الفيل الكبير لا يتجاوز خمسة أطنان . أما الدينوصور الذي يعتبر من فصيلة الزواحف فله منقار كمنقار البط وساقاه كساق الديك الرومي كما أن له قرنين . وهو من أكلة النباتات واللحوم أيضاً . عاش على الأرض منذ ثمانين مليون سنة وقدر وزن ما يأكله بنحو ربع طن من النباتات يومياً . أما حجم مخه فصغير جداً بالنسبة إلى جسمه الهائل لدرجة أن ادراكه الضعيف قد لا يتجاوز علمه بأنه كائن حي خصب . وبالمعهد مجموعة كبيرة من الهياكل العظمية لمختلف أنواع الزواحف من أصغرها إلى الدينصور . كذا توجد أجزاء متناثرة من الأحافير لا شكل لها هي بقايا حيوانات ثديية منقرضة كانت في أميركا الشمالية في أزمنة متوغلة في القدم في العصر المسمى بالعصر الباليوسيني Paleocene وهي معروضة أيضاً في المعهد للعلماء والاختصاصيين . كما توجد أيضاً بقايا عظام حيوانات ثديية تختلف كل الاختلاف عما هو معروف في عصرنا الحاضر .

ومما عني المعهد بدراسته أصل الهنود الحمر سكان أميركا الأقدمين الذين وجدوا بها قبل فتح أوربائها ومنشئهم . فشرع في ذلك في عام ١٨٧٩ وقبض له جمع معلومات قيمة لها خطرهما في هذه الناحية وأيضاً لصلتها بثقافة الجنس البشري إجمالاً . ومع ما في دراسة هذا الجيل من البشر من الصعوبة والتعقيد فقد تبين للباحثين بأن هؤلاء الهنود ليسوا بسلالة قائمة بذاتها وإنما هم أقوام من سكان آسيا لا تربطهم رابطة اقليمية ، نزح أسلافهم إلى

أميركا أفراداً وجماعات حول بوزار بهرينج Behring منذ نحو عشرين ألف سنة بدليل اختلافهم في المظاهر واللغات وأساليب المعيشة وصفاتهم التشريحية وغيرها. ومن ضمن ذخائر التي يحتفظ بها المعهد مجموعة من الجماجم البشرية تبلغ نحواً من ١٧٠٠٠ جمجمة كانت محل درس مستفيض فأمكن منها معرفة الأزمنة التي عاش فيها أصعابها وأنواع سلالاتهم وأعمارهم والحالة العقلية التي كانوا عليها. وكذا النوع «أي فيما إذا كانت الجمجمة لذكر أم أنثى» إلى غير ذلك. لأن الجمجمة في اعتبار العلماء هي أولى أجزاء الهيكل العظمي بالاحتفاظ وأجدرها بالدرس من غيرها، إذ هي من الوجهة التشريحية تمثل الناحية الانسانية، وقد جيء بهذه المجموعة من سائر أنحاء العالم، فهي بمثابة قاموس شامل ومرجع محترم.

هذا وقد عاصر المعهد ظهور كثير من المخترعات وتابع تطوراتها. فمنها القاطرة والتلغراف والسيارة والآلة السكاكية والتليفون والطائرة وأشعة رنتجن والراديو وغيرها من الأجهزة والآلات التي تدار بالكهرباء. كذا الدائن المستعملة في كثير من الصناعات ويحتفظ المعهد ببعض نماذج من الآلات البدائية للقاطرة والراديو. ونماذج لبعض المنسوجات ومستخرجات المناجم وكثير من الآلات التي تستهوي الزائرين وتستلفت الأنظار والتي تمثل في مجموعها الطابع الخاص بالثقافة الأميركية.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن المعهد سميثسونيان الفضل في نشأة فن الطيران فهو أول مصنع للمحاولات الأولى للطائرة كما أنه يشتمل على متحف لتطورها منذ نحو خمس وأربعين سنة. لأن السكرتير الثالث للمعهد وهو المستر بير بونت لانجلي. أعلم علماء زمانه في الكيمياء قدم إلى واشنطن يحمل معه حمله الذي ظل يداعبه منذ صباه. وهو تقلد الإنسان أجنحة الطير وجعل ما هو أثقل من الهواء يعلو فوق الهواء. فقد عانى في هذا السبيل كثيراً وبذل جهداً جهيداً وكان يتجرع لبوغ تلك الأمنية حتى أخذ في مراقبة الطير أثناء تخليقها في الجو ليقبس منها طريقها. وبعد محاولات عدة في سنوات متتابعة أظهر أول محرك ذي أجنحة في شهر مايو من عام ١٨٩٦ أطلقه من فوق سفينة فطار إلى مدى نصف ميل ثم هبط فوق الماء بغير أن يلحق به أي عطب. وبعد ذلك عمد إلى بناء جهاز آخر يرتفع في الجو حاملاً إنساناً فأتمه وأجرى أول تجربة في شهر أكتوبر من عام ١٩٠٣ غير أنها أخفقت. ومن بعده قام كثيرون بعدة محاولات مماثلة كان لها أثرها الظاهر في تقدم هذا الفن. ومهما كانت الظروف واختلفت الأساليب فلمعهد فضل سبق على كل حال.

ومن البحوث التي يقوم بها المعهد مسألة بناء الذرة التي أصبحت في مقدمة البحوث العلمية. وأشعة الشمس ومدى تأثيراتها المختلفة في الأحياء بحثاً مستفيضاً فأكب المستر

أبوت Abbot سكرتير المعهد هو وجماعة من المشتغلين بهذه الشؤون في مرصد المعهد على هذه الدراسات. فالشمس تنشر حولها أمواج القوى إلى ملايين الأميال. فيتجه بعضها طولاً مع الاثير وهي موجات الراديو. والبعض يسير بتموج أثيري متناهم في القصر هي أشعة رينجن. وبين هاتين نطاق ضيق من الأشعة هو أكسير الحياة يشمل الاشعاع والحرارة والضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية غير المنظورة التي تلهب الجلد وتقتل الجراثيم. كما يشمل الضوء الشمسي عدداً لا يحصى من الموجات ذات الأطوال والخصائص المختلفة. وهم يقومون أيضاً بدراسة حرارة الشمس وصلتها بتقلبات الطقس وإمكان الانباء بتغيرات الجو وغير ذلك. فهذا المعهد الذي تؤيده الحكومة الأمريكية هو بمثابة مستودع عظيم لمختلف المعروضات. فيشاهد الزائر في قاعات العرض شتى الحاجات. فمن لعب الأطفال التي كانت تستعمل في أول عهد استيطان الانجليز لأميركا، إلى ملابس الرئيس واشنطن وسيفه. فكتب الرئيس توماس جيفرسون الذي كتب عليه مسودة إعلان استقلال أميركا. إلى ميداليات وأوسمة يبرد مرتاد القطب الشمالي في عام ١٩٠٩ إلى غير ذلك من التحف والآثار التي لا يتناولها حصر. وبه أيضاً مجموعة من ملابس زوجات رؤساء الولايات المتحدة من عهد الرئيس واشنطن إلى فرانكلين روزفلت. وبالمقارنة تتبين وجوه التغيير التي طرأت على ملابسهن مدى مائة وخمسين عاماً.

واهتم رجال المعهد بحفظ مجموعة من الأحجار الكريمة. ونماذج من جميع أنواع المعادن المعروفة. كذا معظم أنواع المعادن والنيازك التي هي من أصل كوكبي وهي مجموعة مستوفاة إلى أبعد حد. وهي تختلف في مظهرها عن المعادن الموجودة على أرضنا قليلاً. ولما كانت رغبة مؤسس المعهد هي نشر العلوم والمعارف، فقد زود المعهد نحواً من ١٥٠٠ مكتبة عامة ومعهداً علمياً في مختلف البلدان بعدد وافر من المطبوعات الثقافية والعلمية في كل موضوع مجاناً لمحيي الاطلاع.

وبالاجمال فالمعهد هو عبارة عن مستودع لأعظم وأثمن المجموعات الفنية في العالم، وهو يشمل مجموعتي التحف اللتين خلفاها كل من المستر اندرو ميلون Andrew Mellon والمستر شارل فرير Charles Freer ولكل منهما بناء خاص قائم برأسه.

وليس من المبالغة في شيء لو قلنا بأنه قد لا يوجد هنالك مكان آخر في العالم قد ضمّ شتات ما تفرّق من نماذج وآثار تلك الفترة التي تخللت فصول رواية الأرض. فترة «التخضر» العجيب وأدوار التطوّر وهو ما يسمى «بالحياة» على هذا النمط الرائع البديع الخالد.

أمين عبده

وزارة الزراعة سابقاً.

التقدم الصناعي

في مصر

وأثره في الحالة العمالية والاجتماعية^(١)

اشتهرت مصر منذ القدم بأنها بلاد زراعية . وستبقى زراعية ما دام يجري فيها النيل العظيم بمائه العذب ويحمل في جريانه أسباب الخصب لأرضها الطيبة وما دامت شمسها المشرقة تبعث الحياة والنمو السريع لكل ما يزرع فيها .

وبالرغم مما تتمتع به مصر من شهرة ذائعة في هذا المجال وبالرغم من الجهود المتواصلة التي بذلها المصريون قديماً ولا يزالون يبذلونها الآن لإصلاح أراضيهم واستثمارها فإن ما ينتج من هذه الأراضي في الوقت الحاضر لا يكفي حاجة السكان ولا يفي للنهوض بمستوى معيشتهم على الوجه الأكمل وحتى إذا ارتقينا بوسائل الانتاج الزراعي أكثر مما فعلنا وبلغنا غايتنا من اصلاح كل الأراضي البور أو القابلة للزراعة وحصلنا في النهاية على أقصى ما تنتجه الأرض من غلة ، فستبقى الحالة المعيشية في مصر دون المستوى المنشود — ذلك بأن سكان مصر يتزايدون باطراد كل عام بنسبة تسبق دائماً نسبة الزيادة في مساحة الأراضي المستصلحة وتغرق بكثير أمثالها في البلاد الأخرى . فقد تضاعف عدد سكان مصر في أقل من خمسين سنة فأصبح في سنة ١٩٤٧ أكثر من ١٩ مليون نسمة . وكان في سنة ١٨٩٧ أقل من ١٠ ملايين نسمة . بينما لم تزد مساحة الأراضي المنزرعة في هذه الحقبة أكثر من ١٠ في المائة . ومعروف أن البلاد التي تعيش من الزراعة وحدها بلاد فقيرة ، كتب على أهلها أن يقنعوا بأقل نصيب في الحياة سواء في مأكلهم أو ملبسهم أو في سائر شئونهم الحيوية .

وثابت من بعض الاحصائيات التقريبية أنه يوجد من أهل مصر ما لا يقل عن أربعة

(١) محاضرة القاها سعادة الدكتور حافظ عقيقي باشا في ٢٦ اغسطس ١٩٤٩ في حلقة الدراسات

الاجتماعية التابعة لهيئة الامم المتحدة التي انعقدت في بيروت ابتداء من ١٥ اغسطس ١٩٤٩

ملايين شخص كان يعيش كل منهم قبل الحرب العالمية الثانية بإيراد لا يزيد عن جنيه واحد في الشهر . وخمسة ملايين شخص بما لا يزيد عن ثلاثة جنيهات في الشهر . وقد زاد هذا المستوى إبان تلك الحرب فيما يختص بعمل الزراعة والصناعة الى ثلاثة أمثاله . ومع هذه الزيادة فستوى المعيشة بالنسبة للطبقات المتوسطة والطبقات الفقيرة لا يزال في حاجة قصوى للنهوض به وتحسينه .

لذلك كان واجباً على مصر أن تفكر جدياً في علاج هذه الحالة وان تستنبط وسيلة أخرى بجانب الزراعة تكفل لأهلها عيشة راضية بقدر الامكان .

ونعود قليلاً الى الوراء حيث شبت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ فقد شعر المصريون بنقص كبير في كثير من حاجاتهم الضرورية ولم يتمكنوا من الحصول وقتذاك على بعضها إلا بأثمان باهظة . فعوّلت البلاد على أن تتجه ناحية الصناعة . ولم تنته تلك الحرب الا وكانت الأذهان مهياً لهذا التطور . فنهض المغفور له محمد طلعت حرب باشا واستنهض المهم داعياً المصريين الى الاهتمام بالصناعة فنجحت دعوته . وانهز فرصة هذا النجاح فتقدم لبلاده بمشروعات صناعية متعددة تمت دراستها بعناية وأشرف على تنفيذها مع نخبة من رجالات مصر بهمة واخلاص حتى بدأت هذه الصناعات تؤتي ثمارها ويفيد منها المصريون وأهل البلاد المجاورة .

وساعد على انجاح هذه الصناعات تعديل سياسة مصر الجمركية في سنة ١٩٣٠ تعديلاً يكفل قسطاً معقولاً من الحماية للصناعات الناشئة . ومعروف ان أبوابنا . قبل هذا التعديل كانت مفتوحة لكل وارد بما لا يدع مجالاً لأية صناعة أن تعيش .

وإذن فيمكن القول بأن التفكير في تصنيع مصر قد بدأ في أعقاب الحرب العالمية الأولى وأن النهضة الصناعية المصرية الحديثة بدأت بعد تعديل التعريفة الجمركية الذي أشرنا اليه أي أن عمر الصناعة المصرية يقل في الواقع عن عشرين عاماً .

صحيح انه قامت في مصر في القرن الماضي عدة صناعات . كصناعة السكر والصناعات المعروفة بذات المنفعة العامة كصناعات الكهرباء والغاز والمياه . ولكن هذه الصناعات لم يكتب لها البقاء إلا بفضل ما كانت تتمتع به من ميزة الاحتكار التي كفأت لها الحماية

من خطر المنافسة مدة طويلة . كما استطاعت صناعات أخرى أن تعيش بجانبها كالصناعات اليدوية والميكانيكية الصغيرة، ولكن سرعان ما ضعفت هذه الصناعات أو تلاشت لأسباب سياسية واقتصادية لا مجال لتفصيلها في هذا المقام .

إن كل الأسباب مهيأة لنجاح الصناعة في مصر، فرؤوس الأموال متوافرة وكذلك الأيدي العاملة . والمادة الخام موجودة سواء فيما تنتجه الأرض أو فيما تحويه في باطنها من كنوز شتى .

ولقد اعتمدت الصناعة أول ما اعتمدت على كثير من المواد الأولية الزراعية التي يتوافر إنتاجها في البلاد وأهمها القطن فنجحت صناعات الغزل والنسيج المختلفة الخاصة بالقطن والحرير والتيل والصوف والكتان وحلج القطن وتبييض الارز وطحن الحبوب وصناعة السكر والمأكولات المحفوظة، كما نجحت صناعات كيماوية كاستخراج الزيوت والصابون والصودا وحامض الكبريتيك والصناعات المعدنية كالآلات المعدنية والأسرة والأدوات الصحية والصنابير وأنابيب الرصاص والحديد والأقفال والمسامير وأدوات الانارة وكثير من أدوات المستشفيات كأدوات التعقيم والأجهزة الجراحية والصناعات الجلدية كعمل السيور وسروج الخيل والشنط والأحذية وصناعات الفخار والقيشاني والسيراميك والبلاط والرخام والأسمنت وصناعة الطباعة وصناعة الآلات وصناعة المواصلات لبحرية والنهرية والأرضية والهوائية وغير ذلك كثير مما يحتاج إلى بيان طويل وهذه الصناعات التي يبشر نجاحها بعصر ذهبي للرخاء في مصر يمكن أن نصل بها إلى أرقى درجات الكمال إذا استمر أصحاب الصناعات على الأخذ في صناعاتهم بالأساليب العلمية الحديثة وتدعيم بنائها على أساس اقتصادي سليم .

ولعل أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الصناعة في مصر فوق توافر رؤوس الأموال والمادة الخام — حسن استعداد العامل المصري وإقباله على تفهم دقائق الصناعة الحديثة بروح الذكي الماهر الصبور .

ولكي ندرك مدى التطور الصناعي في مصر في السنوات الأخيرة نبين فيما يلي بعض بيانات احصائية عن مدى الفائدة التي أفادتها البلاد من نهضتها الصناعية وهي تتناول :
أولاً - رؤوس الأموال المستثمرة في الصناعة وقيمة المنتجات الصناعية والدخل الأهل منيها .

ثانياً - عدد المؤسسات الصناعية والعمال المشتغلين بها وأجورهم .

ثالثاً - أثر الصناعة في الميزان التجاري .

رابعاً - مقدار ما تحصله الدولة من إيراد من الصناعة .

فأولاً - بلغت قيمة رؤوس الأموال المستثمرة في الصناعة سنة ١٩٤٥ بما في ذلك

قيمة السندات المصدرة والإحتياطيات - نحو ٢٠٠ مليون جنيه قيمة إسمية .

وبلغت قيمة المنتجات الصناعية ٢٠٠ مليون جنيه أيضاً . كما بلغ الدخل الأهل منيها

في نفس السنة ٧٠ مليون جنيه . في حين أن قيمة المنتجات الزراعية قدرت بمبلغ ٣٢٠

مليون جنيه (حسب تقدير وزارة الزراعة في تلك السنة) وقيمة الدخل منها ١٧٨

مليون جنيه .

ثانياً - في سنة ١٩٢٧ كان عدد المؤسسات الصناعية أكثر من ٧٠ ألفاً تستخدم

نحو ٢١٥٠٠٠ شخص .

وفي سنة ١٩٣٧ ارتفع عدد المؤسسات إلى ٩٢٠٠٠ كما زاد عدد من تستخدمهم إلى

٢٨٠٠٠٠ شخص، ثم استمرت الزيادة حتى بلغ عدد هذه المؤسسات ١٣٠٠٠٠ في سنة

١٩٤٤ تستخدم ٤٦٠٠٠٠ شخص .

ويقرب الآن عدد المستخدمين في الصناعة من عمال وموظفين نحو نصف مليون .

لا يدخل فيهم عمال الحرف اليدوية ولا عمال الحكومة ومستخدموها الذين يشتغلون

بأعمال صناعية . وهؤلاء يزيد عددهم على المائة ألف شخص .

فاذا أضفنا إليهم عدد من يعملونهم وجدنا بأن الصناعة المصرية قد فتحت أبواب

الرزق لعدد من سكان البلاد لا يقل عن مليون ونصف مليون شخص أو يزيدون .

أما مقدار الأجور والمرتبات التي دفعت للعمال والموظفين الذين يعملون في الصناعة

فقد بلغ في سنة ١٩٤٥ نحو ٢٧ مليون جنيه ، أي بما يزيد على ٤٢ جنيهاً سنوياً للعامل في المتوسط بينما كان متوسط الأجر لعامل الزراعة في تلك السنة ١٩ جنيهاً فقط وهو كما يبدو أقل من نصف الأجر في الصناعة على أن أجور العمال في الصناعة قد زادت بعد هذه السنة زيادة كبيرة ففي صناعة الغزل والنسيج مثلاً عدلت الأجور في أوائل سنة ١٩٤٨ وزادت ٢٥ في المئة مما كانت عليه في سنة ١٩٤٥ .

ولا يدخل في هذا التقدير ما تقدمه بعض الصناعات المصرية لعمالها من الخدمات الصحية والاجتماعية وبخاصة تقديم السكن والتغذية والعلاج .
ففي شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى وشركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار وكذلك في شركة صباغي البيضاء — وهي من الشركات التي أساهم في الاشراف عليها قدّرت قيمة الخدمات سالفة الذكر بما يقرب من ٢٠٪ من أجرة العامل يومياً .

ثالثاً — وكان من نتائج تقدّم الصناعة المصرية أن استغنت مصر عن استيراد كثير من المنتجات الصناعية بفضل صنعها محلياً .
فبالنسبة لصناعة الغزل والنسيج مثلاً قد بلغت قيمة المنتجات :
من الأقمشة القطنية ٢٥ مليون جنيه . ومن الأقمشة الحريرية ٥ ملايين جنيه .
ومن الأقمشة الصوفية ٣ ملايين جنيه .
كما بلغت قيمة المنتجات من صناعات الكحول والبيرة وكسب بذرة القطن والسكر والاسمنت ومستخرجات الزيوت نحو ٥٠ مليون جنيه .
فيكون المجموع ٨٣ مليون جنيه .

وقد توفرت للبلاد هذه المبالغ واندجت في الثروة القومية وتأثر بها الميزان التجاري لصالح مصر وأصبحت عاملاً من أهم العوامل في زيادة القوة الشرائية لأفراد الشعب المصري وبالتالي في رفع مستوى المعيشة بينهم .
رابعاً — بلغ مقدار ما حصلتته الدولة في سنة ١٩٤٥ من الضرائب المفروضة على

الصناعة — خلاف الرسوم الجمركية — نحو عشرين مليون جنيه بينما لم تحصل الدولة من الضرائب المفروضة على الأطنان الزراعية في تلك السنة إلا على أقل من خمسة ملايين من الجنيهات .

يتضح مما تقدم مقدار أهمية الصناعة في تحسين مستوى المعيشة في البلاد وأثرها في دعم الاقتصاد المصري وضرورتها لامكان توازن الميزان التجاري .

وقد ظهرت آثارها بوضوح ابان الحرب العالمية الثانية التي أوصدت أثناءها الطرق البحرية واضطر أهل كل بلد حينذاك أن يكتفوا لدرجة كبيرة بانتاجهم الذاتي .

فقد وفرت الصناعة المصرية لأبناء البلاد حاجتهم من الكساء ومن كثير من المواد الضرورية الأخرى . كما وفرت أثناء فترة تلك الحرب العvisبة لجيوش الحلفاء . كثيراً من المواد الهامة حتى أمكن للمصريين أن يحتملوا سني الحرب دون عناء وأمكن للحلفاء أيضاً أن يشيدوا بما قدمته لهم الصناعة المصرية من معونة قيّمة .

وكان من الطبيعي ، وقد اتجهت مصر هذا الاتجاه الصناعي ان تواجه طائفة من المشاكل العمالية الهامة التي تلازم دائماً تصنيع جميع البلاد . فإن طبيعة العمل في الزراعة وفي الصناعات اليدوية تختلف اختلافاً بيناً عنها في الصناعات الكبرى الحديثة سواء من ناحية تجمع العمال وتكتلهم والمواظبة على الاستمرار في العمل والسرعة والعناية في الانتاج أو من ناحية استخدام الاحداث والنساء وأخطار المهنة أو تنظيم الهيئات العمالية وترتيب علاقاتها مع أصحاب الاعمال . وقد نشأت كل هذه المسائل وتزايدت أهميتها مع نمو الصناعة وتقدمها السريع .

واجهت مصر هذه المشاكل العمالية بطائفة من التشريعات راعت في وضعها ما اقتبست من خبرة بعض البلاد التي سبقتها بأشواط طويلة في التطور الصناعي الحديث وأخذت تدرّج في إصدار القوانين التي تحمي العامل وتنظم علاقاته بصاحب العمل وتحدد حقوق وواجبات كل من الطرفين فأصدرت :

أولاً — في سنة ١٩٠٩ تشريعاً أولياً لحماية الاحداث الذين كانوا يشتغلون ببعض

الصناعات . وقد تعدل هذا التشريع في سنة ١٩٣٣ بتشريع حديث يحرم تشغيل الأحداث دون الثانية عشرة سنة من عمرهم في الصناعة ولا يجوز تشغيلهم إلا في الأعمال الخفيفة التي تناسب مع سنهم وقوتهم البدنية ، وتؤهلهم الى تعلم صناعة أو حرفة . وقد حدد القانون الصناعات الخطرة التي لا يجوز تشغيل الأحداث فيها إلا إذا كان بيدهم شهادة طبية دالة على لياقتهم من الوجهة الصحية للعمل في هذه الصناعات . كما حرّم تشغيلهم في صناعات معينة وفي أثناء الليل ، أما ساعات العمل اليومي فقد حددها القانون كما حدّد فترات الراحة اليومية والأسبوعية .

وكذلك حرّم هذا التشريع تشغيل النساء ليلاً إلا في حالات استثنائية . كما حدّد ساعات عملهنّ اليومي وفترات الراحة اليومية والأسبوعية وحرّم القانون تشغيلهنّ في الصناعات الخطرة . . ونصّ هذا التشريع أيضاً على منح العاملة أجازة قبل الوضع وأخرى لا تقل عن خمسة عشر يوماً بعد الوضع .

ثانياً — نظم المشرع المصري ساعات العمل للبالغين . فصدر قانون سنة ١٩٣٥ نصّ على عدم تشغيل العمال أكثر من تسع ساعات يومياً ، وذلك في الصناعات الخطرة التي حددها القانون . كما حدّد فترات الراحة اليومية على نحو يجعل العامل لا يشتغل أكثر من خمس ساعات متوالية .

ثالثاً — وكان من أثر التطوّر الصناعي أن تنبه المشرع المصري الى ضرورة الأخذ بمبدأ مخاطر المهنة ومسؤولية صاحب العمل وحده عنها . فصدر قانون في سنة ١٩٣٦ نصّ على انه لكل عامل أصيب أثناء العمل وبسببه الحق في الحصول على تعويض عن اصابته من صاحب العمل وفقاً للقواعد المقررة . ذلك فضلاً عن مسؤولية صاحب العمل عن العلاج الطبي وصرف نصف الأجر أثناء العلاج والتعويض في حالة تخلف عاهة جزئية أو كلية أو إذا توفي العامل بسبب الإصابة

رابعاً — ولضمان حصول العمال على التعويض عن اصاباتهم صدر القانون في سنة ١٩٤٢ يلزم أصحاب الأعمال بالتأمين على عمالهم ضد اصابات العمل .

خامساً — كان أيضاً من أثر التطوّر الصناعي تكثّل العمال وتجمعهم فأصبح لزاماً على

الدولة أن توجههم الوجهة السليمة وتعترف بنقابتهم . فأصدرت قانوناً سنة ١٩٤٢ تميز العمال الذين يشتغلون بمهنة أو صناعة أو حرفة واحدة أو مهن أو صناعات أو حرف متماثلة أو مرتبطة ببعضها البعض أو تشترك في إنتاج واحد أن يكونوا فيما بينهم نقابات ترعى مصالحهم وتدافع عن حقوقهم وتعمل على تحسين حالاتهم المادية والاجتماعية . وبذلك اعترفت مصر بالنقابات العمالية ومنحتها الدولة الشخصية المعنوية . على أن القانون قد حرّم على هيئات العمال الاشتغال بالمسائل السياسية أو الدينية حتى تتفرغ لتحقيق الأغراض التي أنشئت من أجلها . كما حرّم عليها الدخول في مضاربات مالية أو تجارية حرصاً على أموالها من الضياع .

سادساً — ولما كان هناك الكثير من الحقوق والواجبات لكل من العمال وأصحاب العمل لم تنظمها القوانين سالفه الذكر فقد ضمنها المشرع قانوناً آخر أصدره سنة ١٩٤٤ وهو قانون عقد العمل الفردي .

وهو ينص على مسؤولية صاحب العمل عن تقديم العلاج الطبي للعامل في حالة المرض ومنحه أجازة مرضية أقصاها تسعون يوماً ، ونصف الأجر أثناء العلاج فضلاً عن تقديم الدواء مجاناً . وقد نظم القانون المسائل المتصلة بالأجر والجزاءات التي توقع على العمال والوجوه التي تصرف فيها حصيلة الغرامات ، والجازات المعنوية بالنسبة لمن يزاولون أعمالاً عادية أو أعمالاً خطيرة أو مضرّة بالصحة .

كما كفل القانون للعمال والمستخدمين الحق في مكافأة عن مدة الخدمة في حالة الفصل من العمل فضلاً عن ضرورة الإخطار قبل الفصل بمدة كافية .

ولم يغفل هذا التشريع الواجبات الاجتماعية الملقاة على عاتق أصحاب الأعمال الذين يستخدمون عمالاً في جهات بعيدة عن العمران فنصّ على ضرورة توفير الغذاء الصحي والسكن اللائق .

وقد أقرّ هذا القانون علاوة على ما تقدم مبدأ هاماً يقضي بمنح العمال اجازة سنوية تراوح مدتها بين ١٠ أيام و ١٥ يوماً تبعاً لدرجة خطورة المهنة وذلك مع دفع أجورهم كاملة عن مدة هذه الاجازة .

سابعاً - بعد أن قطعت مصر هذه المرحلة في ميدان الصناعة والتشريع الاجتماعي كان لا بد من إيجاد وسيلة سريعة للفصل فيما ينشأ من منازعات بين أصحاب الأعمال والعمال فصدر قانون التوفيق والتحكيم سنة ١٩٤٨ وقد جعل هذا القانون الفصل في المنازعات العمالية على مرحلتين . الأولى مرحلة التوفيق فإذا فشلت هذه المرحلة ولم يتمكن الطرفان من الوصول الى اتفاق في النزاع القائم بينهما أُحيل موضوع النزاع الى هيئة التحكيم وهي هيئة شبه قضائية يحضرها محلفون . وقد نظم القانون طرق الالتجاء الى الهيئتين .

وهذا التشريع يعد من أحدث التشريعات العمالية .

ثامناً - ولما كان العمال وأصحاب الأعمال كثيراً ما يدخلون في مفاوضات ودية لوضع شروط للعمل أسخى مما تنص عليه القوانين فقد أعدت الحكومة المصرية مشروع قانون خاص بعقود العمل المشتركة والأركان الواجب توافرها في العقد وهذا المشروع منظور الآن أمام البرلمان المصري .

هذا سرد مختصر للتشريعات العمالية التي أصدرتها الحكومة المصرية وهي في مجموعها ترمي إلى حفظ حقوق العمال وتنظيم علاقاتهم بأصحاب الأعمال . وقد كانت الحكومة المصرية موفقة كل التوفيق حينما فكرت في إنشاء مجلس أعلى للعمل يضم مندوبين عن العمال وآخرين عن أصحاب الأعمال وممثلين لمصالح الحكومة المختلفة وجعلت من اختصاصه النظر في هذه التشريعات قبل إقرارها وإصدارها ويبحث هذا المجلس الآن مشروع قانون للتأمين الاجتماعي ضد المرض والمعجز والشيخوخة والوفاة وإصداره يمكن القول بحق أن شئون العمال تسير جنباً إلى جنب مع تقدم الصناعة ومع تقدم التشريع العمالي في البلاد الصناعية .

وكما واجهت مصر هذه المسائل الهامة واجهت مجازيها أيضاً مسائل اجتماعية وصحية لها خطورتها البالغة، منها اكتظاظ السكان في المدن والمناطق الصناعية اكتظاظاً لم تعرفه بلادنا من قبل . ففي مدينة المحلة الكبرى حيث أنشأ بنك مصر مصنعاً الكبير للغزل والنسيج الذي بدأ العمل في سنة ١٩٣٠ تضاعف فجأة عدد السكان . في المدينة حتى ساءت

حالتها الصحية . ومنها سوء التغذية بسبب بعد المسافة بين المصانع وبين بلاد بعض العمال ، إذ كانت الغالبية العظمى منهم تتناول طعامها في أمكنة بعيدة كل البعد عن القواعد الصحية كما أن الغذاء نفسه لم يكن مشتملاً على عناصر التغذية اللازمة .

وقد وجدنا فوق هذا أن الحالة الصحية لغالبية هؤلاء العمال كانت في أشد الحاجة للعناية بها نظراً لانتشار الأمراض المتوطنة والمعدية بينهم، يضاف الى ذلك أن عدداً كبيراً من هؤلاء العمال هم من فئة الأحداث . وهؤلاء وإن كان القانون يحجز استخدامهم إلا أن حداثة سنهم وبعدهم عن عائلاتهم قد جعل العناية بهم أمراً واجباً .

هذه مشاكل كما تعلمون ليست قاصرة على مصر فحسب ، بل إنها من لوازم التصنيع وقد واجهها الكثير من البلاد الصناعية الأخرى . ويسرني أن أذكر لكم كيف عالجناها وإلى أي حد نجحت الصناعة المصرية في التغلب على حدتها .

إننا لم نتجه في علاج هذه المشاكل نفس الاتجاه الذي درجت عليه كثرة المصانع في البلاد الأخرى وهي إعطاء الأجر المناسب للعامل ثم تركه يدبر بنفسه أمر ما يحتاجه من المسكن والتغذية والرياضة والعلاج والتعليم، بل كان رائدنا في ذلك كله أن يتولى أصحاب الأعمال أنفسهم تدبير السكن الملائم والغذاء الصحي، وكذلك توفير وسائل الرياضة والعلاج بإقامة المستشفيات وتعليم أبناء العمال بإنشاء المدارس وقد أنشأت بعض الشركات التي لي شرف المساهمة في إدارتها مدناً فسيحة أعدت فيها المساكن الصحية للمزوجين من العمال لا يزيد إيجارها عن قيمة مصاريف الصيانة، كما أعدت مطاعم صحية تقدم فيها الوجبات بنصف التكاليف ومستشفيات تامة الاستعداد لعلاج العمال بدون أجر، كما أنشأت المدارس لتعليم أولاد العمال، والنوادي الرياضية لبث روح الرياضة بينهم وتسهيل سبل التسلية لهم أثناء الفراغ ولم تقتصر هذه الشركات على إقامة المساكن للعمال المتزوجين، بل أقامت أبنية خاصة للعزاب من الرجال والنساء أعدت إعداداً وافياً بكل أسباب الراحة والصحة والرفاهية . وقد كان من حسن الحظ أن وجدنا من الحكومة المصرية . كل مؤازرة وتشجيع وربما سمع بعض حضراتكم بالشرف الكبير الذي نالته هذه المصانع ، إذ تفضل جلالة ملك مصر حفظه الله بافتتاح جميع هذه المؤسسات .

ويسرني أن أذكر لكم أيضاً أن بعض المؤسسات الصناعية الأخرى قد حذت حذو مؤسساتنا وقدّمت لعمالها الخدمات الاجتماعية المختلفة .

إنني أعلم أن كثيراً من هذه المنشآت التي تقيمها الصناعة في مصر هو من صميم عمل الحكومات والمجالس البلدية لأن السكن والتعليم والعلاج متروك في كثير من البلاد الصناعية الكبرى للدولة والهيئات العامة . ولكننا نقدر في مصر أن إنشاء صناعة قوية تحتاج إلى تهيئة جوّ صالح للعامل حتى يمكنه الاستمرار والإقبال على الصناعة والاستقرار فيها والإعتراف بها . ويسعدني أن أبلغكم أن هذه التجربة الصحيحة التي تقوم بها شركات مصر وغيرها قد أتت بفائدة كبيرة لأن صحة العامل قد تحسنت كما زاد الانتاج وتحسن نوعه . بقيت لي كلمة عن النقابات وهو الموضوع الذي شغل الكثير من الهيئات الدولية في السنوات الأخيرة وخاصة المجلس الاقتصادي والاجتماعي ومكتب العمل الدولي وكان محل دراسة عميقة من جميع المهتمين بالصناعة في العالم ، فقد كان طبيعياً كما ذكرت أن يشعر العمال في مصر بحاجتهم إلى جمع كلمتهم ، وكان طبيعياً أيضاً أن تصدر الحكومة المصرية قانوناً ينظمها ويعترف بشخصيتها المعنوية . ويسرني أن كثرة العمال المصريين قد تفهموا الغرض الأساسي من إنشاء النقابات وأنها جمعيات اقتصادية وصناعية وليست هيئات سياسية . وإن على رؤسائها والقائمين عليها واجباً نحو الصناعة ونحو زملائهم ، فأتجه كثير من هذه النقابات للخدمة العامة ، فأنشأ صناديق للإدخار ، وفصولاً للتعليم ، وأندية للرياضة . وقد قامت نقابة عمال شركة مصر للغزل والنسيج بالحملة التي يزيد إيرادها السنوي عن عشرين ألف جنيه داراً لرعاية الطفل أعدّ أحسن أعداد نرجو أن يكون مثلاً تحتذي به النقابات الأخرى .

وأحب أن أصاorchكم القول بأننا في مصر نرحب بقيام النقابات ما دامت تسير في الطريق المشروع لها ، وما دامت ترمي صالح العامل ولا تنسى صالح العمل . ونحن نعتقد أنها متى أحسنت إدارتها وعملت على تحقيق الأغراض الاجتماعية التي أنشئت من أجلها ساعدت على إيجاد روح طيبة بين العمال وأصحاب الأعمال سداها التفاهم ولحمها المصلحة العامة ومصلحة الصناعة التي هي مصلحتهم .

هذا هو سرد مختصر للتقدم الصناعي في مصر في العشرين السنة الأخيرة والنتائج الاقتصادية التي حصلنا عليها وهو يبين بعض المشاكل المالية والاجتماعية التي اصطحبت هذا التقدم الصناعي، وكيف عالجته مصر عن طريق التشريع من جهة وعن طريق الخدمة الاجتماعية من جهة أخرى . على أن هذه هي المرحلة الأولى ، وستتلوها باذن الله مراحل عديدة ، لأننا لا زلنا نوجد في السير في هذا الطريق لتوفير العمل ورفع مستوى المعيشة بصفة عامة ، فأمامنا مشروعات صناعية ضخمة لا شك أنها تحتل المكان الأول من تفكير الحكومة المصرية ورجال الصناعة على السواء . فإن مشروع كهربة خزان أسوان الذي سمعتم به حضراتكم ولو أنه لم يبت بعد في بعض التفاصيل الخاصة به ، إلا أننا نأمل أن يجتاز قريباً مراحل التنفيذ ، وإن يوفر بعد إنشائه القوة المحركة الرخيصة التي تسمح بإقامة صناعات هامة كصناعة استخراج الحديد من المادة الخام الموجودة بكثرة ومن نوع جيد في منطقة أسوان .

أمامنا أيضاً استكمال البحث والتنقيب عن الثروة المعدنية كالبتروول مثلاً حيث ان مصر غنية بهذه المواد كما أثبت البحث ذلك .

ولا يفوتني أن أذكر لحضراتكم ان خبرتنا في هذه المرحلة الأولى قد أثبتت ضرورة توفر الصناع المهرة الذين هم عماد الصناعة وقوامها . كما أثبتت ضرورة القيام بالبحوث الفنية اللازمة لكل مشروع حتى يستكمل مقوماته . ولذلك وجب علينا العناية أولاً بتدريب العمال ورؤسائهم تدريباً فنياً كاملاً يمكنهم من استعمال الآلات والمكينات الدقيقة كما يمكنهم من زيادة الانتاج ويغرس في نفوسهم روح الاعتزاز بالمهنة حتى يؤدوا رسالتهم على الوجه الأكمل فيصبح العامل المصري في مصاف زملائه في أرقى البلاد الصناعية . كما يتطلب الأمر العناية بالأبحاث الفنية بإنشاء معاهد للدراسات الخاصة بالصناعة حتى يتهيأ لها كل الوسائل والمقومات التي تعاونها على توطيد أركانها وتجعلها تتمشى مع تقدم الأساليب العلمية والصناعية الحديثة .

١٨ أكتوبر

جلس إلى أولاده يستمع إليهم في صمت . هذا راغب أن تكون حلة العيد ذات سراويل طويلة ، فقد شبَّ عن الطوق ولم يَعُد صغير الأمس يقنعه الساذج ويرضيه الرخيص . وهذه تريده ثوباً من خالص الحرير ، ولن تكون دون جارتها تجملاً وحسبها ما لقيت من أذى صويحباتها وسخريتهن في العيد الفائت . وإلى قبالة كبير أولاده يرنو بالجامعة . والويل له إن سوف . وتلك زوجته ومن بين يديها صغيران يتلفهان شوقاً لرؤية « خروف العيد » والام تضرب لهم الصبح موعداً وما الصبح ببعيد .

وآوى الأب إلى مضجعه فرأى فيما يرى النائم كأن جيوبه قد ملئت ذهباً وفضة ، ورأى الدنيا قد أقبلت عليه ، ف قضى ليلة سعيدة الهجعة ، هنيئة الضجعة ، وهبَّ مع البكرة منشرح الصدر وكان ضيقه ، رضي البال بعد بلبال ، رخي النفس بعد برم . فجهد يعرف باعث هذا وهو المرهق عسراً ، فذكر أنه يملك « ورقة نصيب » ليس على بينة من يومها ، فنشرها بين يديه في لهفة وأنعم النظر فيما تحمل من تاريخ فاذا هو قد مضى عليه أسبوعان فافكفاً إلى ملابسه يختطفها من على المشجب اختطافاً ، وأسرع يلتمهم تلك اللقبات التي أعدت لظهوره على عجل . وأقبل إليه أولاده يستعجلونه البر بما وعد ، ويطلبون إليه الوفاء فأرضاهم بقبالاته . وتعلقوا هم بأهدابه إلى الباب يشيعونه بصيحاتهم المختلطة حتى أدركوا واقية السلم فتشبثوا بها يرمقونه وهو يطوي الدرجات طيماً ، واتسع له الطريق فأسرع فيه الخطو لا يلوي على شيء ، وقد سمع لدقات قلبه ففرع لشدها فترث واتأد وامتدت يسراه تلمس مكان الورقة من جيبه فعادت بها تنشرها بين عينيه ، وأنعم النظر يقرأ . فأيقن أنه

لم يكن مكذوباً ، فتاريخها (١٨ أكتوبر) وهو اليوم في غرة الشهر الجديد ، ورأى الرقم الدال على الجائزة الأولى تكبر حروفه حتى تكاد تغطي على كل ما هو مسطور ، وأعظم أن يكون بعد قليل مالك ثلاثة آلاف من الجنيهات ، وكان في أمسية مضت - لا عادت - يضيّق بتدبير دراهم معدودة . فضحك حتى بدت نواجذه ، ولكنه ما لبث أن ذكر الناس من حوله فضم شفتيه ضمّاً وعبس حتى لا تظن به الظنون ومضى في طريقه .

*

كان وفيق بك وجيهاً مرموقاً يشغل مكاناً في الدولة لا يدركه إلا من خلف جُل عمره وراه . وكان ذا حيلة في الحياة فعرف كيف بعبّد لنفسه سبيلاً أو اثنتين إلى رزق آخر يعود به على نفسه وعياله . ولم يكن في وقته أو جهده مدّخر للجديد من السعي فرضي بحظيه هنا وهناك وانصرف يعني بمن حوله في جلسات ينتهزها بعد الظهر مرة ومع الصبح قبل أن يغادر البيت أخرى . وكانت تحته زوج يرى يدها في كل ركن من أركان البيت ، وهي فيه مشمرة لكل صغيرة وكبيرة مع حزم وتدبير .

وعاش الزوجان لا يعرفان الراحة إلا إذا وقّراهما لمن بين أيديهم ، ولا يهنئهما إلا أن يرا بسما الرضى والغبطة منفرجة بها تلك الشفاء الرقيقة .

وكان جاء الأب لايحمله إلا أن يظهر بنوه في رونق وبيته في أناقة ختمه ذلك عسيراً لم يتسع له هذا الكسب ولا ذاك الرزق . وكانت الحياة غبّ حرب وبين شقيّ غلاء ، من أجل ذلك لم يجد الأب مدخراً يحتال به للطارئ والنازلة ، وما أكثرهنّ عند من ما لا يقوى لمنّ ويخلنّ به قصوراً وضعفاً .

*

سكنت تلك الأسرة طابقاً من منزل جميل ، يعلوها في الطابق الثاني رب البيت بآله ، برزقه الله رزقاً واسعاً من تجارة وبيوت . وأقبلت الحرب فأعشت موات ماله وأزكت روته .

وكانت بين الأمرين آصرة عقد عقدتها الجوار ، ومرت السنون تمكّن لها وتوثّق . ولم تعمل فاصلة الغنى فصماً ، وإن كانت قد أرهقت ذا الرزق المكتوب عسراً ، فما أحرصه

على ألا يتخلف به الركب كثيراً . وقد يما كان في السلم يجري مع مساكته في قرآن ويكاد في بعض أيامه يفوته .

*

كانت زوج « وفيق » عند منصرفه في شغل . ولم تكن تحسبه على تلك العجلة الخاطفة وظنته غير بارح إلا بعد أن يدبر الرأي بينهما فيما يفعلان . وهي ذات علم بضائقته ولكنها مدخرة لذلك رأياً همت أن تكشف عنه لزوجها مع المساء فأمسكت حتى لا تضار أولادها في نخوتهم ، وتعود بهم صغاراً وقد خلفتهم كباراً .

فما راعها إلا صغارها حين عادوا إليها وهي في بعض شأنها يقصون عليها في فرح عجلة أيهم إلى السوق ليحمل اليهم ما يرجون ويحبون .

ونفضت الأم يدها وانتفضت واقفة وهرولت إلى الباب تظن أنها مدرسته . ولكنها ما لبثت أن علمت أنه ودع عجلاً . فأبّت مهمومة واجمة . ونظر الصغار هذا الوجه المتجهم فشغلهم وأوجسوا خيفة فسكنوا وحمد كل في مكانه . وساد الصمت ، وملكت الأم مقاد حزنها خشية أن توحش قلوب أبنائها بعد أنس ، فخرجت عن صمتها وعادت اليهم باشة هاشة ولكن قلبها لا يزال مشغولاً .

* * *

ثلاثة آلاف من الجنيات ، رزق الله يسوقه إلى من يشاء من عباده ، ذلك ما أخذ « وفيق » يردده في نفسه وهو يخطو . ولكن شيئاً آخر شغل فكره ، وكان يفقد علته ثم وجدها ، لقد لبثت هذه الورقة في جيبه أياماً وما التفت إليها . وبالأمر مر به الصبي يحمل بياناً طويلاً بالأرقام الراجعة وصاح بين يديه : الاسعاف . الاسعاف . فما أبه له ولا اهتز . وما كان يضيره لو قلب ورقته بين يديه وتعرف عاقبة أمرها . ثم يسكت ويعود إليه شغله فيجد لذة البشرى اليوم خيراً منها بالأمر وان المال المسوق بعد ضائقة أنعش للقلب من مال ساقه الله مع يسر . وإذا ما ارتاحت نفسه لهذه العلة بدأ الشك يخالجه : أهو راجح حقاً ، أم ما أحسه وهم وإهم وخدعة مخدوع .

فيحس كأن قوة تلفته عن شيء ظنه وتبسط له في الرجاء ، وتبريء له علته ، ويجدها علة قوية حين التفت إلى الورقة بعد نسيان فيعود واثقاً ، ويستخفه الفرح فيمضي في سبيله .

وطالت غيبة الزوج قليلاً ولم يكن بين يدي العيد إلا يوم أو بعض يوم . وعلى الأم أن تهيب لصغارها ما يحتاجون إن كانت لا بد مهينة ، وما عليها أن تفعل ما ارتأت حتى يثوب الزوج ، ما في ذلك من بأس :

فصعدت وحدها الى ربة البيت تسألها جنيتها ، ولبثت تجد لذلك سبباً ثم وجدته بعد لاي ، ولم يكن حقاً كما لم يكن كذباً .

فجلست اليها تحدثها ولا تقوى أن تلج الى موضوعها . وطال الحديث ومضى الوقت بحري ، وهمت أن تنصرف وخرجت في إثرها صاحبها تودعها .

وما كادت تقفان إلى الباب حتى وجدت الشجاعة في أن تطلب ورأت في غيبة الزوج علتها وفيما ربة البيت تعود إليها بما طلبت إذا « وفيق » يرى صاعداً ، فتقبض زوجه يدها عن أن تأخذ ، فقد سقط عذرها بمجيئه . وتودع صاحبها شاكرة منحدره إلى حيث تلتقي الزوج الآتب .

*

شهد شاهدان كانا يقفان غير بعيد على ناحية من الأفرز في شارع معمور بالمارة والسابلة ، رجلاً وسيم الطلعة بادي الأناقة قد وقف إلى صبي حافي القدمين أشعث أغبر في جلباب خلق وهما يتجاوبان في صوت حال ، هالهما منه سخرية الصغير بالكبير ، وعدوان الكبير على الصغير . نغفاً إليهما يفصلان بينهما .

كان « وفيق » واحماً حين أُلتي في روعه أنه في شهر أكتوبر وأنه انصرم منه خمس ليالٍ بعد العشرين . وكان الصبي غير رحيم حين زيف له قوله . وكان « وفيق » سريع الغضب حين أغلظ للصغير . وكان الصغير منتصفاً حين سخر به وأمعن في السخرية . تلك هي الجلبة التي قيسض الله لها آئين ، كادت لولاها تفضي بالمتمخاضين الى غير محمود من المعبة .

*

ونظر « وفيق » إلى من حوله فرأى العيون تغمز ، والألسنة تلمظ . ووجد نفسه بين حشد يسأل اللاحق منهم السابق فيحدثه أن هنا وجيباً به مس . فيضحك من يضحك ويأسى من يأسى . وكذا المصيبة تضحك وتحزن ، وعلى هذا جبل الناس ولا يزالون .

وانتفض « وفيق » في رعدة أحس بعدها أن غاشية تكشفت ، وحملاً عن عاتقه سقط .
وعادت إليه الواعية فاستخرى .

ولكنه ما لبث أن شق طريقه بين الملتفين حوله ومرق لا يلوي على شيء وراءه ،
وهم أن يطلب سيارة غير أنه ذكر أنه خرج من البيت خاوي الجيوب يضرب في الطرقات
ابتغاء هذا الرزق الموهوم ، تخفض يده وقد كاد أن يرفعها مشيراً ، وأمسك صوته في
فيه ، وقد هم أن يرسله منادياً . ومضى يخب في سيره إلى البيت .

*

أتعرف كيف تستقبل المدن الأعياد ؟ هذه محالّ ازدانت مطارحها بالزاهي الجاذب ،
وتلك قد كشفت عن ألوان من الحلوى في خُمُر مذهبة ومفضضة . والعيد الذي
سيستقبله « وفيق » بأسرته عيد كبير ، تساق فيه الخراف إلى المدينة سوقاً .

ومر « وفيق » في أوبته بالكثير من هذا ، رأى الثياب الجميلة فذكر أولاده وحاجتهم
منها . ورأى الحلوى الرائقة فلم ينس أن للبيت مع العيد نصيباً . وما أن وقع نظره على
الخراف ، وكان قاب قوسين أو أدنى من منزله ، حتى خال كأن صغيره أمامه يعبث بيديه
اللطيفتين على ظهر واحد منها وهو بجانب الخروف والخروف يند عنه ثم يعود إليه شارعاً
قرنيه ، فاندفع يجري فرأى حقاً ما حسبه خيلاً ، وبصر بصغيره ملق على الأرض . فحمله
على كتفه تاركاً الخروف وراءه . وكنت تسمع انصغير يصيح : لا أريد خروفاً لا أريد خروفاً .

*

وأظلم المساء الأسرة فإذا هي في مثل جلستها بالأمس ، وإذا الرغبات هي الرغبات .
وكانت الأم أوسع حيلة فلم تترك صغارها ينامون إلا مطمئنين . ولكن الأب لبث جامداً لا يحير
جواباً ، وقد حبس صوته فيه إجهاشة الباكى ، ودمعة وراء جفنيه خاف أن تنحدر على خديه
فتفصح أسى في النفس ، لو انكشف للصغار لأووا إلى مضاجعهم بغير تلك النفوس الراضية .
وآن للآب أن ينام فقام إلى مضجعه متثاقلاً ، وغلبه النوم فنام وأصبح ، فإذا
الرغبات هي الرغبات لم ينقص منها شيء ، ونظر إلى الورقة فإذا بينه وبين يومها أسابيع
ثلاثة . واضطربت جنبات نفسه بأمل ورجاء ، ودغ معه لو تطوى الأسابيع في غمضة .
ولكن هيهات . فأطرق الرأس وهو يردد : « ١٨ أكتوبر »

بين الصحافة

والادب

الصحافة والأدب صنوان تربطهما مودة وثيقة العرى . والصحافة والأدب كذلك عدوان . لدودان يتربص كل منهما للنيل من غريمه ومنافسه .
قد يكون هذا عجيباً ، ولكنها الحقيقة الجليّة

فالصحافة مهنة تتطلب أول ما تتطلب السرعة واليسر ، والأدب يقتضي أول ما يقتضي أناة وتجويداً . الأدب مالة على الصحافة والعكس غير صحيح ، لأن الصحافة تستطيع أن تستغني عن الأدب إذا ضاق المجال وفاض سيل الأنباء والبرقيات . أما الأدب فلا يستطيع أن يستغني عن الصحافة لأنها بحكم سعة انتشارها وكثرة تداولها تعد أفضل وسيلة لنقل هذا الأدب إلى قارئيه . لذلك يحرص الأدب دائماً على مصادقة الصحافة ، ويقبل روادّه على القودّد إلى الصحفيين رغبة في عدم إحصاء الأبواب دونهم .

ويحار الأديب الذي يشتغل بالصحافة ، أيمجنح إلى الأدب فيكون مقلّاً في إنتاجه مجيداً أم ينحاز إلى الصحافة فيتوخى السهولة والسرعة ويُعنى بالخبر في ذاته لا بطريقة صوغه وتجميله .

ولنضرب لذلك مثلاً : إذا ذهب صحفي وأديب لمقابلة كبير من الكبراء ومحادثته وعاد كل منهما يدوّن ملاحظاته ، فإن الصحفي قد يقتصر من كلام الكبير على جملة واحدة أو اثنتين ويهمل بقية الحديث لأنه « إنشاء » لا أكثر ولا أقل . أما الأديب فإنه يبدأ بوصف هذا الكبير ، فيقول إنه أهيفُ القدّ انحمر الشعر عن جهة عريضة توحى بالتفكير العميق ، يتحدث إليك حديثاً ذا نغمة موسيقية تحب إليك طلب المزيد من مجالسته ، ثم يمضي يسرد كلامه كلمة كلمة ، بعد استبعاد النابي والعامي وصوغه في قالب فصيح بليغ . ولا ينسى أن يشير بين الآونة والأخرى الى ابتسامة انفرجت عنها شفها

الكبير، أو رشفة من قدح ارتشفها، أو سيجارة أشعلها. ويختتم مقالته بوصف الطريقة التي حيّاه بها ذلك الكبير.

هذه صورة لست أحسب أنها دقيقة، ولكنها تمثل اتجاهين متضادين، ولذلك يحرص الصحفي المحض على أن لا يتيح للأديب الوصاف أن يتسلل إلى صحيفته خشية استغلال أنهر الصحيفة المحدودة في كلام لا يقدم ولا يؤخره، وإن كان من المؤكد أن يفوت عليه نشر بعض الأنباء ذات الشأن.

وإذا صدر كتاب وأراد صحفي أن يكتب عنه كلمة في جريدته فهو بين أمرين: إما أن يكتب عنوان الكتاب واسمي مؤلفه وناشره وثمانه، وإما أن ينتقي منه فصلاً طريفاً أو حادثة معينة ينشرها كاملة أو موجزة.

أما الأديب فإنه لا يقنع بهذه «القشور» وإنما يقبل على تلاوة الكتاب بتدبر وعناية شديدين، ثم يكتب عنه الصفحات في إطراء المؤلف وتقريظ الكتاب فصلاً فصلاً، إن لم يكن كلمة كلمة. ولكن بعض الصحف التي لا تود أن تخاصم الأدب خصاماً شديداً تتوخى التوسط بين المذهبين، فهي توفي الكتاب حقّه من الناحية الاخبارية وتجوّد عليه بقليل من الناحية الأدبية، وهي في هذا تمسك العصا من وسطها.

والصحافة لا تعترف بالمرض ولا بالمطر ولا بالبرد ولا بالليل ولا بالحر ولا بالمسافات ولا بالعطالات ولا بالمواسم ولا بشيء. ولكن الأدب يعترف بها ويقيم لها وزناً.

ونعني بذلك أن الصحفي قد تصيبه الحمى ولكنه وهو يفترش سريره يباشر عمله فيتصل بهذه الدوائر وتلك ويقف على الأنباء ثم يبلغها بالتلفون إلى صحيفته متحدثاً بالمرض وسطوته، وإذا اكفر الجو وعصفت عاصفة رملية هوجاء كما حدث من نحوامين، سارع الصحفي إلى الشوارع يصور لها صوراً ويتأملها ليسجل تحولاتها واتجاهها وألوانها، بينما يعتصم سواه بالدور، ويحول الجزع والهلع دون هذا التتبع والرصد. وإذا نشبت معركة أو شهرت حرب طار الصحفي إلى حيث تكون وأبلغ جريدته كل خطوة وكل حادثة. أما الأديب فلا يزال البعض يزعم - وأحسبه على صواب - بأن الوحي لا ينزل عليه إلاّ تحت ظروف خاصّة وإن شيطان الشعر لا يتجلّى لصاحبه إلاّ في أحوال معينة

فهذا لا يكتب أدبه إلا في الساعة الرابعة صباحاً ، وذاك لا ينظم قصائده إلا على ضوء شمعة خابرة ، وذاك لا تتفجر ينابيعه إلا على شاطئ البحر ، وهكذا مما قد لا يتوفر للصحفي . فالصحفي يعمل في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، يؤدي عمله في الترام والنادي والسينما والشارع ، في الجو الصاخب والهدوء الشامل ، بين آلات الطباعة ذات الضجيج والعجيج ، وعلى المكتب الأنيق الفاخر في حجرته . يباشر عمله فلا يهيمه ألطسخت ملابسه بالزيت أم خضبت يدها بالخبث . الصحفي يستقي الأنباء من الحفير الدني ، ومن الرفيع السامي ، من الحارس ومن المحروس ، من سائق السيارة وصاحب المكتب ، من المصادفة والمثابرة .

أما الأديب ، فلا أحسبه على هذا بمستطيع لأنه يقول إن هذا جهد ضائع ، فاقيمة الخبر إذا قرأته بعد نشره بيوم واحد . إنه يصبح نسياً منسياً ، ما يكاد يولد حتى يموت . أما الأديب ، فإنه مخلّد تتناقله الأجيال ويردّده بنو كل عصر ويلتذّ بتلاوته المحدثون .

هذا هو الخصاص وهذا هو التنافر بين الفنّيين المتصاهرين : الأدب والصحافة .

أما الصداقة التي تؤلف بينهما فمحورها النكاح والمداد والقلم والطرس هذه صناعة كتابة ، وتلك مثلها صناعة كتابة .

هذا عمل مشاع ، وذاك عمل مشاع .

الصحافة تفتح صدرها أحياناً للأدب ، والأدب يوسم الطريق أمام الصحافة . حتى لقد استقلّ الأدب بصحافته الخاصة فأصدر رجاله مجلات شهرية وأسبوعية ونصف شهرية يودعونها فغثات أقلامهم ونتاج قرائهم ومحصول بحوثهم ، وهذا ما نستطيع أن نطلق عليه اسم أدب الصحافة أو صحافة الأدب لأن الامتزاج بين الفنّين يصل إلى مرتبة عالية وإذا رجعنا إلى تاريخ الصحافة العربية تبيننا أن أسبق الصحف إلى الظهور — ومنها عدد لا يزال على قيد الحياة كالوقائع المصرية والاهرام والمقطم — كانت تمنّي كل العناية بالأدب ، ولا تنشر الأنباء إلا كما تنشر الاعلانات ، فمجلة الوقائع المصرية مثلاً كانت تصدر حافلة بالمقالات الأدبية التي يكتبها محرروها وتنشر إلى جانب ذلك ما تصدره الحكومة من قوانين ولوائح واعلانات وتعيينات وترقيات وهلمّ جرّاً .

وجريدة الاهرام كانت عند ما أسسها المرحوم مان سليم وبشارة تقلا تصدر أسبوعياً

في الاسكندرية باللغة العربية ، ثم نقلت الى القاهرة وأخذت تصدر طبعتين واحدة باللغة العربية متضمنة المقالات الأدبية المطولة ، وثانية باللغة الفرنسية . وكانت تتعرض أحياناً لبحث شؤون البلاد الاجتماعية . وظلت تسير على هذا النهج ولم تنصف بالصفة الاخبارية وتتغلب على كل ناحية أخرى فيها حتى آلت ملكيتها الى جبرائيل تقلا باشا وولي هو أمرها بنفسه .

أما جريدة المقطم ، فكانت كذلك جريدة أدبية تنشر نقشات أقلام الأدباء السوريين والبنانيين في مصر . بل إن مؤسسها غلبت عليهم الصفة الأدبية لأن اثنين منهما أنفأا قبل المقطم مجلة «المقتطف» في لبنان ثم نقلها الى القاهرة وهي مجلة أدبية وعلمية كما يعرف قراءها . وظل الدكتوران يعقوب صرّوف وفارس نمر باشا يشرفان عليها الى جانب اشرافهما على المقطم حتى توفي أولهما وأقعد تقدم السن ثانيهما . ولا يزال نمر باشا يوالي الادب كل عناية ويسعى جهده الى صبغ الصحافة بهذه الصبغة ، كما أنه يبذل جهداً محموداً في جمع فؤاد الاول للغة العربية .

ومن يرجع الى أعداد «الجريدة» التي كانت تصدر في سنة ١٩١٢ والسنوات التي تليها يقرأ مقالات أدبية رفيعة لمعالي الدكتور لطفي السيد باشا يستطيع الاديب أن يدعي انها أدب ويستطيع الصحفي أن يقول : بل صحافة ، ويمكن للعلماء والباحثين أن يقولوا : بل هي علم وبحت .

والتعليق على الأنباء هو في الواقع لون من ألوان الادب ، لأن المعقب الصحفي يبسط النبأ مبيناً أسبابه ودواعيه في أسلوب كثيراً ما تكون السهولة الممتنعة من صفاته . والمقالات الافتتاحية والتوجيهية هي كذلك ضرب من ضروب الادب لأن كاتبها يتوسل بالمنطق والحجة والأسلوب القوي على اقناع الجمهور وأولي الامر بعدالة القضية التي يدافع عنها أو بصواب الرأي الذي يدعو إليه .

ولا ريب في أن الاديب إذا أحسن الوقوف على الحقائق المتعلقة بموضوع معين كان أقدر الناس على الاقناع وأمرهم في كسب التأييد الذي يعوزه . ولهذا السبب عينه نبئت فكرة أخذت تنتشر في معظم بلاد العالم تقول إن الادب يجب ألا يقتصر على ذاته

وإنه ينبغي أن يتصدّر الأدباء حركات الإصلاح الاجتماعي وتوجيه الرأي العام عن طريق الصحف إلى الهدف المبني

والأديب بحكم دأبه ، له قرائم ومريدون يتابعون كل ما يكتب أينما كان ، ويحرصون على ألا يفوتهم شيء من إنتاجه ، لذلك يكون للمقالة الإصلاحية التي يكتبها الأديب أثر أبعد من المقالة التي تظهر في جريدة بغير إمضاء .

والمقالات التي تنشرها المجلات الأسبوعية والمصورة هي كذلك نوع من الأدب لأنها تكتب بطريقة جذابة ذات مقدمات وأواسط ونهايات ، فضلاً عن مطابقة أسلوبها لمبادئ النحو والصرف وخضوعه لجميع قواعده. ثم إن كتاب هذه المقالات كثيراً ما يترسلون في الخيال ويتركون له العنان فتصبح مقالاتهم قطعاً أدبية نفيسة .

أضف إلى ذلك أن الصحافة اليومية والدورية لم تتخلّ بعد عن الأدب على الرغم من القيود التي ألزمت على الإذعان لها بحكم شحّ الورق وخضوعه لنظام توزيع دولي . فأنشأت الصحف اليومية جميعاً تفسح للشعراء والأدباء المجال فتنتشر لهم ما تجود به أفلامهم ، ولا سيما في المناسبات الوطنية أو القومية . ويهتم بعض الصحف بمتابعة المحاضرات التي تلتقي في الجمعيات الأدبية والعلمية وفي نوادي العاصمة المصرية وقاعاتها وتنتشر موجزاً لها ليطلع عليها الذين حالت ظروفهم دون الاستماع إليها .

علاوة على أن بعض الصحف أفرد أعداداً خاصة للأدباء والكتّاب ، ولا يزال العدد الذي أصدرته الأهرام بمناسبة وفاة عميدها تقلاً باشاً متضمناً المراثيات التي دونها صحبه وخلصاؤه ، ماثلاً في الذاكرة ، ولا يزال العدد الذي خصصته الصحيفة عينها لاستقبال مولد جامعة الأمم العربية يعد تحفة عالية من الأدب الخالص . وتلك الأعداد وأمثالها ، تكون متنفساً للقارئ يروح بها عن الأسلوب الصحفي الذي كثيراً ما يعوزه جمال الصياغة وحسن التقديم ، وكثيراً ما يكون متصفاً بالجفاف والقحط .

كما أن الصحافة اليومية كانت - قبل الحرب - تهتم بترجمة روائع الأدب الغربي

ونشرها تباعاً، مساهمة منها في النهضة الفكرية . كما أنها لا تزال تفرد جانباً من أنهرها للكتابة عن المطبوعات الجديدة وحفلات التأيين والاحتفاء التي تكون عادةً كسوق عكاظ حافلة بروائع الكليم وبدائع النظم .

ولم تغفل الصحافة الأسبوعية بوجه خاص باب القصص الذي لا يمكن لأحد أن يدعي إتياءه الى أسرة الصحافة . فالقصص — المنقول منه والمؤلف — أدب صرف يقبل القراء في مصر عليه : اقبالاً شديداً أغرى بعض الناشرين بإصدار مجلات خاصة للقصص ،

تلك هي الوشائج الوثيقة التي تصل بين أسرتي الأدب والصحافة ، وهي — على ما أعتقد — أوثق من أن تنال منها الأيام . وهل أدل على توطيد هذه العلاقة من أن عدداً كثيراً من الصحفيين ورؤساء التحرير ينتمون الى أسرة الأدب قبل أن ينتموا الى الأسرة الصحفية والتطور الحديث في الصحف المصرية يقتضي انتخاب محررين ممن توافرت لهم مميزات خاصة لعل أهمها جودة الكتابة وحسن الصوغ لأن الزمن الذي كانت الجريدة لا تستطيع أن تستغني فيه عن مصحح يراجع ما يكتبه المحررون قد ولّى الى غير رجعة . وأقلع أصحاب الصحف إلا القليلين منهم عن سياسة الاقتصاد واستخدام الصحفي الذي تستطيع أن تدفع له مرتباً أقل من سواه .

ولا ريب في أن هذا التحول الجديد في صحافة مصر يزيد الأمل في التقريب بين الصحافة والأدب حتى لا أكاد استشف من بين ثنايا المستقبل أننا مشرفون على عصر يقرأ فيه القارئ الخبر في الصحيفة فيحسب أنه يقرأ قطعة من الأدب الرفيع ، لا إفراط فيها في استخدام المحسنات الكلامية ولا قصور فيها عن استكمال دعائم الاجادة اللغوية .

هذه آراء عنيت لي بعد خبرة قصيرة الأمد في كل من ميداني الصحافة والأدب . ولو خيسرت بينهما لعسر عليّ أن أصدر حكماً .

وربيع فلسطين

توم جونز

Tom Jones

للكاتب الانجليزي هنري فيلدنج

١٧٥٤-١٧٠٧

يسلم المارفون جميعاً أن قصة « توم جونز » التي يطالع القراء خلاصة لها في هذه الصفحات هي خير قصة أخرجها مؤلفها للناس . ويقول بمض النقاد إنها أعظم قصة في الادب الانجليزي .

و « توم جونز » هذا لقيط ألقته أمه على عتبة بيت واحد من أهل الخير هو مستر « أولوردي » .

ويقول أحد الكتاب . إن المؤلف قد جمل من هذه القصة ملحمة نثرية . فهو في النثر كهومير في الشعر .

وقد كان « هنري فيلدنج » رجلاً مثالباً في حبه الخير للناس جميعاً .

السيد الماجد « أولوردي » شخصية محبوبة . قد أوتي بسطة في الجسم . وقوة في العقل . وطيبة في القلب . كما أوتي أكبر مساحة من الأرض الزراعية في مقاطعة « سومر ستير » . حيث كان يعيش في عزلة عن الناس . وحيث كانت تونس وحدته أخته الآنسة « بردجت » .

وكانت هذه الآنسة قد جاوزت الثلاثين من عمرها . وكانت لا تأسى أبداً على ما فاتها من ملاحه وجمال . وطالما أعلنت أن محاسن المرأة ومفاتها إنما هي أشراك لها وللآخرين . وقد أوتيت هذه الآنسة بسطة في العقل . حتى لقد كان يظن أنها تعرف أسرار كل أجبولة ومكيدة وضعت أو سوف توضع في طريق أجمل الجيلات وأفتن الفاتنات من بنات جنسها .

وقد غاب « مستر أولوردي » ثلاثة أشهر كاملة في إنجلترا . ثم جاء الى بيته متأخراً ليلة أن عاد . وتعشى مع أخته عشاء خفيفاً . ثم قام إلى غرفة نومه . وقد نال منه التعب وأضناه .

وإذ هو يرفع غطاء السرير رأى طفلاً ملففاً في مُلأة . وهو ينام ملء جفونه .
وينعم في مكانه ذاك بأسعد نوم وأهنئه .

ولقد كان من الجائز أن تبدو الآنسة « بردجت » أكثر عناية بالطفل الذي عهد إليها
به لولا أن قلبها كان مشغولاً بالعناية بالكابتن « بليفيل » الذي كان قد نزل ضيفاً عندهم
منذ شهور :

وكان الكابتن الظريف يعني عناية غير قليلة بأمر الآنسة « بردجت » ذلك لأنه كان
واحداً من أولئك الرجال العقلاء الذين يرون في جمال النساء عرضاً زائلاً . وعارية مستردة .
ولو خير لاختار أن يعقد زواجه على ما يملك السيد « أولوردي » من عقار موروث
ومن مالٍ طارفٍ وتليد . وكان الكابتن في اقتحامه لذلك الحصن من الفضيلة . حصن
الآنسة « بردجت » رائده الأناة والتعقل .

وقد اقتضى الأمر أن تمر بضعة أيام قبل أن يعلم السيد « أولوردي » بتسليم هذا
الحصن .

وسرعان ما اغتفر للخادع خديعته . ذلك لأن أخته كانت قد بلغت يومذاك السن التي
تدرك فيها ما يضرها وما ينفعها . وتبع هذا أن رحب بالكابتن كزوج لأخته .

وبعد انقضاء ثمانية أشهر على زواجهما ولدت السيدة « بليفيل » مولوداً ذكراً . كامل
الخلقة . حتى لم يعبأ أحد بقول القابلة إنه ولد قبل تمام حمله بشهر .

ولو أن مولد وارث — ولدت هذه الأخت المحبوبة — كان مصدر سرور وغبطة
لمستر « أولوردي » . غير أن حبسه للقيط الصغير قد زاد ولم ينقص .

ومن عجب أن السيدة « بليفيل » قد بدأت تشاطر أخاها حنانه . وبدأت مغرمة بأن
تصحب « تومي » . كما بدأت تبدي قلة مبالاة بأمر ولد مستر « بليفيل » حتى لقد أثار
هذا الأمر قلق زوجها .

والحق أن هذا الميل منها للطفل اللقيط مضافاً إلى مسائل أخرى قد كانت سبباً في أن
ينشب بينها وبين زوجها خلاف قد أحرقه وأثار حفيظته . حتى أدت به الغضب يوماً إلى
أن يصيبه الفالج . وهي مصيبة قابلتها الزوجة بالتجمل والصبر .

وقد بدأت هي منذ ذلك الحين تعني العناية كلها باللقيط . وأصبح أمر تفضيله على ولدها يثير عدم الرضا عند الناس كلهم باستثناء واحد منهم هو مستر « أولوردي » الذي ما يروح يولي اللقيط كل عناية .

وقال اللائمون إنه لمعجب أي عجب أن يأذن السيد الماجد لصبي لقيط أن يتربّي مع ابن أخته . وقالوا إن هذا سوف يتأثر بالقدوة السيئة فتسوء أخلاقه وتنحط . ذلك لأن « توماس » قد بدت عليه منذ الصبا الباكر ألوان من الرذيلة . وبخاصة السرقة . فهو قبل أن يبلغ السادسة عشرة من عمره كان قد سرق إحدى الحدائق . ثم أتبعها بسرقة بطّة . ثم أعمل بعد ذلك مشرطه في جيب مستر « بليفيل » .

ومما هو جدير بالذكر أن « بليفيل » كان رجلاً لا يشرب الخمر . وكان تقيّاً . وكان منزناً . وهي صفات حبيته إلى كل من عرفه .

والخادم الوحيد في العائلة الذي أبدى اهتماماً بصحبة « توم جونس » كان « جورج سيجرم » حارس الصيد . وهو رجل في خلقه انحلال .

وصحب الولد والحارس سيدهما في رحلة صيد . واتفق أن سرّباً من طائر الحجل قد هبط في أرض جار للسيد اسمه « وسترن » فأمر السيد « أولوردي » حارس صيده أن لا يتخطى حدود أرض الجار ، وأنذره بالحرمان والطرّد إن عصى أمره . ولكن الصبي اللقيط قد عرف كيف يقنع الحارس بضرورة التخطي . فأصغى لمشورته ودخل أرض الجار وأطلق على الطير الرصاص .

فلما جاء صاحب الطير يشكو بأذن السيد « أولوردي » إلى طرد الحارس . ثم عزّر ابنه في العهاد . وعنفه ولكن في غير غلظة .

ثم نبئت صداقة وطيدة بين « توم » والسيد « وسترن » الذي كان يعجب بمهارة الصبي في ركوب الخيل . حتى لقد أعلن السيد إعلاناً صريحاً في ساعة من ساعات سكره أنه يتمنى لو كان له ولد قد أوتي مثل ما أوتي « توم » من البراعة والذكاء .

ثم أصبح « توم » ضيفاً مقيماً لا يتخلف عن مأدبة السيد « وسترن » وحتى لقد أصبح الأمر الناهي في أمر سلاح السيد وأمر خيله وكلابه .

وعندئذ أجمع «توم» أمره على أن يستعين بهذه المنزلة التي بلغها في قلب السيد «وسترن» ويشفع عنده لصاحبه حارس الصيد الذي أراد أن يلحقه كخادم في بيت «وسترن» ثم رأى أن يستعين في ذلك أولاً ببنت «السيد» الوحيدة .

وكانت هذه الفتاة واسمها «صوفيا» مليحة الشكل . وإن كان يعيبها بعض القصر . ولم يكن «توم» مولعاً بحبها . ذلك لأن هواه كان مع «مولي سيجر» صغرى أخوات حارس الصيد .

وبينما الأمور كما وصفنا إذ جاء «توم» ذات أصيل إلى حيث كانت «صوفيا» تجلس وحيدة وبدا ينبئها في لهجة الجد . وبعد اعتذار قصير أنه في حاجة إلى معونة تسديها إليه . فظنت أنه يريد أن يحدثها حديث غرامه بها . ذلك لأن لونها قد امتقع وتولتها رجفة . وتعلت لغة الحديث ولكن «توم» لم يمهلها إذ بدأ يتوسل إليها بأن تمد يد المعونة لحارس الصيد . فلما أفاق «صوفيا» من غشيتها قالت — وعلى فيها ابتسامة حلوة — أهذا كل ما كنت

ترجوه مني بمثل هذا الجد البالغ في القول ؟ ألا فاعلم أنني قد استجبت لندائك !

وفي الأسابيع التالية كان «توم» يذهب كل يوم للصيد مع «السيد» ثم يعود معه إلى البيت حيث كانت «صوفيا» تسلط على الشاب كل أشعة سحرها وفتنتها . فأصبح يبادلها هو — من حيث لا يدري — حباً بحب ولو أنه كانت تعتريه بين آونة وأخرى نوبة احساس بحب «مولي سيجر» ولو أنه كانت تطوف بخاطره ذكرى العهد الذي تعاهدا عليه فيعرف أن له حبيباً في مكان غير هذا . وقد جمعت رحلة الصيد يوماً بينها وبين أبيها وبين صاحبها . وإذ هم عائدون قفز حصانها على حين غفلة من فرط الخفة والمرح . فخرى «توم جونس» وكان منها غير بعيد وأمسك بلجام حصانها . ولكن الحيوان المتمرد الصعب الشكيمة قد ألقى بحمولته الغالية وراء ظهره فتلقاها «جونس» بين ذراعيه . وفي تلك اللحظة خطر بباله لأول مرة أن لن يهدأ باله حتى تكون «صوفيا» ملكاً له . وقد شجّعته على هذا الطموح وصيفة الفتاة واسمها «مسز أوز»

وظفق صاحبنا — وقد أضنته لواعج الحب الذي كان لا يجرؤ على أن يبوح به — بمشي في الخلاء . ويطوف ما يطوف بين الطارق المنعزلة حيث كان يشكو تباريح الجوى .

وقال يوماً وهو يناجيها : لوددت أن السماء استجابت لدعائي فجعلتك بين ذراعي !
وإني أرى السعادة في أن يجمع الدهر بيننا وأرى الشقاوة في أن يفرق بيننا الدهر .
وكانت أخت السيد « وسترن » على يقين من أن « صوفيا » قد تيمها الحب فباتت نضو
سقام وأليف شجن . وإن الذي أشرب قلبها حبّه هو السيد « بليفيل » ثم ما لبثت أن
صارحت أخاها بما يجول في وهما .

فما أن سمع هذا القول منها حتى قال : لم أكن أسعد يوماً في حياتي من هذا اليوم
الذي سمعت فيه هذا النبأ . ذلك لأن أرضنا وأرضه متجاورتان . وكأن قد ربط بين أرضه
وأرضي من قبل رباط زواج .

ولكن بعد أيام قلائل كشفت « صوفيا » لعمتها عن سرها . وقالت لها ان هواها مع
مستر « جونس » . فهاج لذلك هائج السيد « وسترن » وثار نأثره . ثم ذهب وقد كاد
الغيظ يقتله الى السيد « أولوردي » فاستلّ هذا حقه وأزال امتعاضه وأكد له أن لن
يتمّ هذا الزواج أبداً وأن « صوفيا » لا مفرّ لها من أن تتزوج مستر « بليفيل » . ثم زاد
على هذا بأن نادى هذا الغر الدعي الطامع في يد « صوفيا » وهو « جونس » وأعطاه
بعض المال وأمره بأن يغادر البيت لتوه . وأن لا يعود إليه أبداً .

وخرج « جونس » ووجهته مدينة « بريستول » والحزن يكاد يقتله . ذلك لأن الدهر
قد حال بينه وبين تلك التي أحبّ . كما حال بينه وبين ذلك المحسن الذي كان به حفيظاً . فأصبح
اليوم لا يأسى على شيء . ولا يبالي بما تجيء به الليالي .

وبات الليلة الأولى في خان حيث لقي جماعة من الجنود فربطت بينهم وبينه أواصر الصلابة
فقام بسداد نفقة طعامهم . ثم دارت كؤوس الخمر خللت من ألسنتهم ما انعقد . ولما جاء
دوره ليشرّب نخب من أحبّ ذكر — في غير تردد — اسم « صوفيا » ويسترن فقال
الجنديّ حامل العلم : وإني أعرف هذه الفتاة — وكان قد رآها في مرفص مع عمته —
وأعرف أن والدها يملك أرضاً في « سومرستشير » كما أعرف أن نصف شباب مدينة
« بات » قد شغفوا بها حباً .

فصاح « جونس » في فورة الغضب : إنك أوقع مخلوق على ظهر الأرض ! وما إن قال

هذا القول حتى رماه الجندي بزجاجة ملئت خمرًا فأصابت رأسه نحرًا مغشياً عليه .
ثم غادر الجنود الخان بعد أيام . وظلّ « جونس » يهذي وهو في فراش المرض . وكان
يعالجه طبيب جراح . ولم يكن هذا الجراح سوى « بارتروج » الذي طرده السيد
« أولوردي » من خدمته .

« وبارتروج » هذا رجل كفء متعدد نواحي الكفاءة . فهو فوق إدمانه القراءة .
حلاق ممتاز ، وله في الطب براعات .

وهو اليوم كصاحبه « جونس » لا عمل له إلا الطواف بالطرقات .
ولما برى الفتى من جرحه خرج هو وصاحبه ووجهتهما « جلوسستر » ومنها إلى
« أبتون » فلما صارا على مقربة منها أثارتهما صرخات عاتية تخرج من إحدى
الغابات . جرى « جونس » فألقى امرأة نصف عارية . يضربها رذل من الأردال . ويحاول
أن يعلقها في جذع شجرة . فضربه « جونس » ضربة شديدة . فلما تبينته عرف فيه —
والدهشة تغمره — الجندي الذي ضربه من قبل . وبعد أن تبادلوا الاكبات جرى الجندي
واختفى بين الأشجار . وحلّ « جونس » وثاق المرأة التعسة وأخذها إلى خان قريب .
فلما أفاقت المرأة — واسمها « مسز وترز » شكرته أجزل الشكر . وكانت هي امرأة
نصفاً فيها إغراء وفتنة . وفيها حلاوة وملاحة . وعلم « جونس » أنها كانت زوجة لضابط
اسمه « وترز » فهجرته لتهرب مع ذلك الجندي الذي كان يضربها .

ثم أكدت هي هذا القول وأضافت إليه أن ذلك الجندي كان قد أغراها بالهرب .
وبدا أنه فعل ذلك ليقتلها في مكان منعزل ، ثم ينزع عنها حليتها وجواهرها .

فلما سمع « جونس » حديثها وقف منها — وقد شغفها حباً — موقف المشفق عليها
الزاري بها . ثم تواعدا على أن يزورها في غرفتها إذا أقبل الليل .

وفي ذلك الحين كانت « صوفيا » قد برّح بها الألم . فهي لم تفقد حبيبها « جونس »
فحسب . بل أصبح لزاماً عليها أن تبدي الرضا لمستر « بليفيل » الذي كانت تغنى نفسها
لرؤيته .

وقالت لو الدها . وهي توجوه وتلح في الرجاء : لست أستطيع العيش مع مستر « بليفيل »

فان أُجبرت على الزواج منه أدّى ذلك إلى قتلي . فقال أبوها وهو يقذف بها بعيداً عنه :
فلتموتي إذاً وليلعنك اللاعنون ! ألا فاعلمي أنّي قد عقدت العزم على هذا . فان لم تقبلي فلن
أعطيك من مالي دانتقاً أو سحتوتاً . حتى لو رأيتك تموتين جوعاً في عرض الطريق !
وبعد أيام قلائل قالت « صوفيا » لوصيفتها : لقد عزمت أن أغادر بيت أبي هذه الليلة .
وإن لي في لندن قريبة من ذوات الجاه . ولا شك أنها سوف ترحب بمقدي الترحيب كله .
فلما جنّ الليل خرجت السيدة والوصيفة يسيران على الأقدام ، ثم جمعتما صدفة عجيبة
رجل قال إنه دلّ « جونس » على الطريق المؤدية إلى « بريستول » ، فلما علمت « صوفيا »
بهذا نقدته جنبها لكي يسير وإياها في ذلك الاتجاه .

وأدّى البحث الدقيق إلى معرفة اسم الخان الذي نزل فيه « جونس » ، ثم بلغت هي
ووصيفتها ذلك الخان في الصباح الباكر .

ودار الحديث بين الوصيفة وصاحبة الخان فأطنبت هذه وبالغت في وصف جمال فتى
غريب نزل في خانها ، فأيقنت الوصيفة أنها تعني بهذا القول « جونس » .
ثم أشارت ربة الخان إلى مكان « بارتروج » صاحب « جونس » وطيبه فأخبرها هذا
أن « جونس » لا يزال مقيماً في الخان ، ولكنه قد أوى إلى فراشه . فقالت الوصيفة
إذاً فأيقظه حالاً ، فان سيدتي تريد التحدث إليه ، وهو لا شك يسره السرور كله أن
يتحدث إليها .

ثم أعطت « صوفيا » فرّوها إلى الفتاة وقالت : خذي هذا الفرو فضعيه في غرفة مستر
« جونس » ، وإذا كان الفراش خالياً فضمي الفرو فوقه .

فلما ناد مستر « جونس » إلى فراشه صرخ صرخة عالية جاء على إثرها « بارتروج »
فسأله : من جاء بهذا الفرو إلى هنا !

فأجابته : لقد رأيته على ذراع إحدى المراتين التي كانت تريد أن تقتحم غرفتك لو أذنت
لها بذلك .

فصاح « جونس : وأين هما ؟

— إنهما الآن على بعد أميال وأميال .

فصرخ « جونس » صرخة مدوية دعر لها « بارترديج » المسكين وجنّ جنونه ، وطلب إليه « جونس » أن يأتيه بالخليل ، ثم ارتدى ملابسه في مثل ملح البصر ، وطفق يجري في فناء الخان مسرعاً ، وإذا بيد تمسك به ، وإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام السيد « وسترن » الذي بادره بقوله : ها قد وجدنا الكلب ، وأنا الضمين بأن السكبة قريبة الدار من هنا . واحتجّ « جونس » على هذا القول وأنكر معرفته بمكان الآنسة . ثم أخلى السيد سبيله بعد أن أشبعه سباً وشتماً . ثم أمر بأعداد الخيل لتقلّبه والقسّ « سبل » الذي جاء في صحبته . ثم سارا قدماً للبحث عن الفتاة .

وإذ علم من خادم الخان أنها قد عبرت نهر « سفرون » فقد أسرع في اجتياز الجسر القائم على ذلك النهر : وهو يقسم بأنه سوف ينتقم منها شر انتقام . وما إن سار ميلين حتى ألقى نفسه في حيرة أمام مفترق الطرق .

وحاول القسّ أن يهوّن من أمر المصيبة . فصاح « السيد » صيحة منكرة وهو يقول ألا تمسك لتلك الفتاة النجسة !

وفي صباح اليوم التالي أيقن « السيد » أن لا فائدة ترجى من البحث واقتفاء أثر الفتاة وعاد إلى « سومرستشير » . وكان « جونس » أكثر توفيقاً في بحثه عن ضالته المنشودة . وهو لم يعرف طعم الراحة . ولم تعرف عينه طعم الكرى . وسار مجدداً في أحد الدروب التي تؤدي إلى « دافنتري » « فدنستابل » « فسانت البانس » . وهناك عرف لسوء حظه ونكد طالعه أن « صرفيا » قد سارت في طريق لندن .

ثم ذهب إلى العاصمة الكبرى يحدوه أمل ضعيف في العثور بها في بيت من بيوت العظماء التي كان يلم بها كل يوم غير آبه لما يلقاه من غنت الخدم وعجرفتهم ثم بدأ يغشى المعارض والأندية على أمل أن يلقاها هناك .

وكان جماله حديث القوم . وكم من سيدة جميلة أبانت له بلغة العيون التي هي أبلغ من لغة الكلام . وأكثر إفصاحاً أنها ترحب بالترحيب كله بكل ما يبديه من أمارات الحب وآياته . وكان « جونس » يستعصم — في شجاعة بالغة — من كيد النساء ، حتى لقي ذات ليلة — في حفلة مقنعة — لادي « بلاستن » الفاتنة التي غلبته على أمره . فكان يزورها في

بيتها كل ليلة . وذات مساء ، وكان قد ذهب إليها قبل موعد ذهابه ، أدخله الخدم غرفة الجلوس إنتظاراً لحيي اللادي .

ومن عجب أنه رأى وهو ينظر في المرآة خيال حبيبته « صوفيا » ! فقال : إنها هي بعينها وبذاتها .

وكانت هي صاحبتة حقاً ذلك أن السيدة التي كان قد عرفها في المدينة هي السيدة « بلاستن » التي استقبلتها في بيتها . والتي كانت تنوي أن تزوجها من أحد اللوردات الثبان الذي فتن بسحر جاهها .

وما أن رآها « جونز » حتى خرّ راكعاً وقال : غفرانك يا آنستي ! فقالت وقد أخذ منها العجب . وأي غفران تريد بعد الذي سمعته ؟ فأجاب : لست أدري ماذا أقول . وكيف أعتذر . وأنا الشقي ؟ وإني لأستاهل أن يحى إسمي من ذا كرتك إلى الأبد بعد وصمة « أبتن » .

فوقفت « صوفيا » والأرض من حولها تكاد تميد . وكان وجهها أشدّ بياضاً من الثلج ، وقلبها دائماً الخفقان .

واستطردت تقول في صوت هو إلى الهمس أقرب . كيف أرضى بتجريمي والتسميع بي ؟ وكيف أرضى بأن يكون إسمي مضغّة في أفواه الأوباش والأرذال ؟ وكيف أرضى أن نجهر بالقول وتفتخر بما منحه إيساك ذلك القلب الذي غفل عنه حراسه ؟ بل كيف أرضى بأن أسمع أنك كنت مجبراً على أن تهرب مني وأن تنسى قصة حيي ؟

وقد أدهشه سماع هذا القول منها . ذلك لأنه لم يرتكب يوماً في حقها إنمأ ولا ذنباً . فلمّا حق الأمر علم أن الذنب في هذا التجريس يرجع إلى ثروة صاحبه « بارتروج » في كل حفل وناد . وأقسم ليقتلنه جزاء هذه الثروة . خالت بينه وبين قتله وأيقنت ببراءة صاحبها فلما عاد الماء إلى مجراه . وحل السرور مكان الحزن . نطق ببضع كلمات بدت لها كأنها اقتراح بزواج . فقالت : لولا أن واجي ياسيدي نحو أبي يقتضيني أن لا أتبع هوى نفسي لكان الفقر بين يديك خيراً ألف مرّة ومرّة من الغنى والثراء بين يدي رجل آخر .

ثم أعدّ العدة للقاء آخر . وغادر « جونز » البيت إلى حيث يقيم : وكانت صاحبة البيت الذي نزل فيه سيدة ظريفة ليست بالفقيرة ولا بالغنية . وهي تعيش على دخل سنوي يجيئها من السيد « أولوردي » .

ولما كانت تعرف ما بين هذا السيد وبينه من علاقة فقد جاءته يوماً تقول : « إن السيد « أولوردي » قد كتب إليها يقول إنه آت إلى لندن عما قريب . وأنه يطلب إليها أن

تهيء له مكاناً للإقامة . وأضاف إلى ذلك قوله إن السيدة « بليفيل » قد ماتت منذ قريب . وإن السيد « بليفيل » في حاجة إلى الترفيه عن نفسه في مكان بعيد عن كل ما يذكره بالفجيعة . وأنه سوف يصحب معه « بليفيل الصغير » .

وكذلك السيد « وسترن » وقد بدأ يدب إلى قلبه اليأس من العثور على ابنته الغائبة قد جاءه كتاب من سيدة ترود بيوت الأثرياء إسمها « مسز فنز باتريك » بينها وبينه صلة بعيدة من القرابة كما أن بينها وبين « لادي بلاستون » صلة ودّ وثيق .

فلما طال ترددها إلى بيت « اللادي » عرفت قصة « صوفيا وجونس » معرفة كاملة . أمّا وقد شغفت « مسز باتريك » ببطل قصتها فقد طلبت في كتابها إلى السيد « وسترن » أن يحول بين هذا الفتى وبين تلك التي تراحمها في حبه .

وقد أثار الريبة والشك في قلب زوجها ما أحسّ به من سعيها في إغراء « جونس » بأن ينقض عهد الهوى لحبيته .

ولقي مستر « فنز باتريك » الفتى « جونس » في الطريق . وسرعان ما سلّست السيوف من أعمادها . وسرعان ما أصيب « فنز باتريك » بطعنة من سيف « جونس » . فسبق هذا إلى السجن ليحاكم على جريمة القتل .

وبلغ النبأ ممع مستر « أولورذي » يوم وصوله إلى بيت « مسز ميللر » ففزع فزعاً شديداً . ولكنه قال : إن فاجراً غويساً يسير هذه السيرة لابد أن تكون نهايته إلى المشقة ! ولكن « مسز ميللر » أثبت أن تصدق أن « جونس » كان مجرمًا . ذلك لأنها كانت تحبه الحب كله لما كان يبدية من حنان بالغ نحو أطفالها . فأجمعت أمرها على أن تقتضي الأمر . وأقسم « جونس » أن مستر « فنز باتريك » هو الذي جرد سيفه أولاً . وإنه ردّ العدوان دفاعاً عن نفسه . ولكن رجلين من النوتية كانا يمشيان في الطريق شهدا بأن « جونس » كان المعتدي .

وسارت الأمور في مجراها إلى أن جاءت « مسز وترز » التي كانت عشيقة « جونس » في مدينة « أبتن » . وقالت لمستر « أولورذي » إن ذلك اللقيط الذي قذف به في عرض الطريق لم يكن غير ابن أخته هو !

وزادت الأمر إيضاحاً فقالت إنك لا بدّ تذكر أن مستر « سمر » وهو ابن صديقك . وهو الذي قت بنفقات تعليمه والذي أقام في بيتك عاماً وكأنه ولدك . هذا الولد قد ولدت أختك !

ثم جاء محامي مستر « أولورذي » فقال إنه قد رشا الشهود بتحريض من مستر بليفيل .

فقال له أولوردي : أظنك كنت فاعلاً غير هذا لو عرفت أن مستر « جونس » هو ابن أختي .

قال : الحق ما كنت أعرف هذا . ولكنني ظننت — وقد سكت عن موضوع الخطاب — إنك تريد أن تبقي المسألة سرّاً من الأسرار .
فقال « أولوردي » مندهشاً : أي خطاب تعني !

— الخطاب الذي فاولتني إياه أختك وهي تجود بروحها . فقد أمسكت بيدي وقالت : أعط هذا الخطاب لمستر « أولوردي » وأبنته أن مستر « جونس » هو ابن أخته فناولت الخطاب وأبلغت الرسالة إلى مستر « بليفيل » وقد قال لي إنه قد أدّى الرسالة .

فوقف مستر « أولوردي » وقد دارت به الأرض الفضاء لهول ما سمعه من أنباء هذه الخطيئة الكبرى . فلما أفاق أرسل إلى ابن أخته الذي جاء وامتقع لونه وتولته رجفة . فأنبأه أنه قد جعل له في ماله نصيباً معلوماً . له أن يتقاضاه . وعليه أن لا يراه بعد ذلك مرة أخرى . ثم جاء الجراح فأعلن أن مستر « فتر باتريك » قد جاوز مرحلة الخطر . فلما التأمّت جراحاته اعترف بأنه هو الذي بدأ برفع السيف . ولذلك فقد أطلق سراح « جونس »

أما السيد « وسترن » الذي عاد أخيراً إلى المدينة . والذي ضمّ ابنته إليه فقد دهش للنبا القائل أن « جونس » هو ابن أخت « أولوردي » . ثم بعث إليه من يحميه به . فلما جاءه قال له محيياً : أيها الصديق القديم ... إني ليسرني السرور كله أن أراك ! وعلينا أن ننسى الماضي بخيره وشره .

ثم سارا معاً إلى بيت « وسترن » . فلما دخلاه دفعه دفعة خفيفة وطلب إليه أن يذهب إلى حجرة « صوفيا » لكي يتناجيا . وبعد قليل ذهب اليهما وهو يسأل « جونس » هل حدّدت هي موعد الزفاف ؟

ف قالت صوفيا : ما الذي تريد مني يا أبي أن أفعله ؟

— أريد أن تتخذه زوجاً منذ الآن !

قالت هي : لك السمع والطاعة ...

فركع « جونس » . وقد ذهّل من فرط السرور . أما « وسترن » فقد طفق يرقص ويقفز في الغرفة جيئة وذهاباً . ثم توقف فجأة وقال : أريد أن ألتقي « أولوردي » فأين مكانه الآن فأنله الله ؟

ثم خرج يفتش عنه . تاركاً الحبيبين ينعمان بلذة الدقائق الأولى من حياة ناعمة سعيدة .

مبارك إبراهيم

عن الانجليزية

شعر العصر

في العصر الحديث

شوقي ، حافظ ، مطران ، علي طه ، أبو ساري ، ناجي ، الصبر في

نشرت مجلة « آج نوفو » Age Nouveau وهي مجلة فرنسية تعني بالآداب والفنون وتصدر في باريس مقالاً قيماً في عدد أغسطس سنة ١٩٤٩ للأستاذ نعيم قطان تناول فيه الشعر الحديث والشعراء المعاصرين في مصر فنقله فيما يلي :

منذ ما غزا المغول البلدان العربية ، وفتح نابليون مصر ، شهدت الحضارة العربية أحلك عهد في تاريخها ، فقد كانت كل كتابة أدبية باللغة العربية تعد في نظر المغول والعثمانيين آية من آيات الوطنية، ومن ثم فهي عمل عدائي يناهض سلطانها .

ولولا ان وجدت العربية في القرآن عاصماً وملاً لجاز ان تتمحي لغة الاسلام المقدسة في تلك الحقبة الحالكة من تاريخ هذه البلاد .

وإذا كان نابليون قد أذكى الشعلة الوطنية العربية بعد إذ أوشكت أن تصبح رماداً، فإن آثار هذا الإذكاء في جوانب النشاط الفكري لم تأت في صورة من النهضة الأدبية العربية إلا في أوائل القرن العشرين .

وقد امتازت هذه النهضة بأمرين أولهما: إن اللغة العربية التي لم تستخدم أجيالاً متعاقبة قد بدأت تظهر كأداة غير طيبة في التعبير عن الحقائق المعاصرة التي تختلف كل الاختلاف عن نظائرها في القرون الوسطى . وثانيهما إن تأثير الثقافة الأوروبية — وخاصة الثقافة الفرنسية — حال دون ظهور فكر عربي خالص، ولم يتسنَّ للنهضة الأدبية العربية أن تأخذ بسبيل الأزدهار إلا في ميادين الشعر والشعر وحده .

وعند ما يفكر المرء في بواكير الإنتاج الشعري المعاصر في مصر لا بد أن يحضر إلى

الذهن على البديهة اسما شاعرين من خول الشعراء هما حافظ ابراهيم، واحمد شوقي .
أما حافظ وقد مضى على وفاته نيف وخمس عشرة سنة فيوشك اسمه أن يذهب في أغوار
النسيان على مرّ الزمان . وكان حافظ المنحدر من أسرة متواضعة هو شاعر الشعب الذي
يحس باحساسه ويشعر بشعوره ويدرك وغائبه وحاجاته . وقد حثّ الشعوب العربية علانية
في شعره الجميل على المطالبة باستقلالها وبعث حضارة الاسلام .

وقد جاهد حافظ ليقبل الى أبعد حدود التقليد الشعراء القدامى قبل الاسلام وبعده .
ولحافظ الفضل مع ذلك في أنه جعل الشعر نابضاً بالحياة ومؤرخاً لأحداثها
بعد ما أوشك . أن يفقد - بدونه - هذه الخاصّة فلا يعبر عن أفكار أهل هذا العصر . ولم
يخلف حافظ أحداً من بعده . فهو لا يزال واحد زمانه . ومن أجل هذا كان لا يتناهى الأدبي خطره
وأهميته ، إلا أنه لا بدّ لنا من أن نقرر هنا إن هذا الخطر محدود ، ذلك لأن الشاعر لم يستطع
أن يخلق شخصيات تتميز بها مسرحياته أو أن يضفي معاني فلسفته على هذه المسرحيات ^(١)
وفي المقدور ان نستثني من هذه المسرحيات بعض الحوار الذي تتألف منه أشعار
هز المشاعر هزاً وتأخذ بالألباب

ولم تكن هذه حال صاحبه شوقي فقد ولد من أسرة غنية وتلقى قسطاً من التعليم موفوراً ،
وأناحت له إقاماته المتعددة في فرنسا أن يغترف من مناهل الثقافة الغربية .
ولقد حاول شوقي مع حرصه على أوزان العروض القديمة أن يجعل في أحايين كثيرة
مكاناً للشعر الغنائي وأن يبدع في التصوير بغير أن يجافي ذلك قوافي الشعر وأوزانه .
وكان شوقي على غرار صاحبه حافظ مرهف الشعور شديد التأثر بمشكلات عصره ،
وكثيراً ما نظم قصائد سياسية في مناسباتها . ولقد طالع العربية بقصيد جمع بين الوفرة
والإجادة .

على أن أكبر عمل انفرد به شوقي هو مسرحياته الشعرية التي ستظل مقطوعة الضرب
في الأدب العربي . وخلق بنا في هذا المقام أن نشير الى أن الشعراء القدامى من العرب لم
يختلفوا لنا تراثاً من هذا الشعر المسرحي . وفي وسعنا أن نذهب إلى القول بأن الأدب العربي

(١) يعني الكاتب احمد شوقي بك لا حافظ ابراهيم بك

خلا من أدب القصة ما خلا القرآن، وقصص ألف ليلة وليلة التي لا تعد في ذاتها إنتاجاً أدبياً بمعنى الكلمة.

ولقد أحس شوقي بما للفن المسرحي العالمي من كبير شأن عند ما تذوق مسرحيات راسين، وشكسبير، وكورنى

وكان في وسع الشاعر أحمد زكي أبو شادي أن يقتني آثار حكماء العرب في القرون الوسطى. أولئك الذين كانوا يجمعون في وقت واحد بين الفلسفة والعلم غير أنه بدد هذه الموهبة بكتاباته عن تربية النحل وتصدره شعراء الطبيعة.

وقد كان ينشر في كل عام ديوان شعر من أربع مئة قصيدة يضم قصائد مختلفة من نظمه وقد أراد أبو شادي أن يحدد الأوزان بإدخاله قواعد من أوزان الشعر الإنجليزي. وجاءت النتيجة بين بين، وأخذ أبو شادي يطالع الناس من خلال دواوينه الوفيرة الإنتاج بقصائد تبعث على الإعجاب، ولكن أباشادي ماد فهدر الشعر في عام ١٩٣٦ ووقف جهده على العلم.

أما الشاعر إبراهيم ناجي فشعره أقل من حيث وفرة الإنتاج غير أن أكثر هذا الشعر الذي ينظمه من الروائع، ولقد كتب ثلاث قصائد جميلة عن الطبيعة فأبدع وأجاد وهو يكتب الآن قصائد «كالبرشام» لبعض المجلات المصورة

وبين الشعراء من الشباب الذين أخذوا أنفسهم بالقريض وأكثرهم في هذا الباب اهتماماً بالشعر، الشاعر حسن كامل الصيرفي فلقد حاول أن يبعث فن شعراء العرب في الأندلس بما فيه من موسيقى وجمال وقصائده في الغالب صوفية تستوحي أحياناً معاني رمزية.

ويجيء دور خليل مطران - وهو شاعر يتقاسمه لبنان ومصر - ولقد عاش يحمل لقب «شاعر القطرين» وشعره نابض بالحياة وهو معدود عند الناس أفضل شاعر في جيله.

وبين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٦ ظهرت مجلة «أبولو» وكان اسمها وحده يعلن عن برنامجها وقد التفت من حولها شعراء من الشباب يحبون الشعر ويخلصون لرسالته إخلاصاً لا تشوبه شائبة، وليس لأيهم من وراء الشعر غرض إلا حب الشعر ذاته.

ومع أن هؤلاء الشعراء من الشباب لم يؤلفوا مدرسة جديدة للشعر، فقد أراد كل

منهم أن يطبع الشعر بطابع العصر . وكان ألمع هؤلاء الشعراء وأكثرهم تألقاً في سماء القريض أحمد زكي أبو شادي ، وإبراهيم ناجي ، وحسن كامل الصيرفي ، ومحمود حسن إسماعيل ، وعلي محمود طه .

ولقد وعد الثلاثة الأول أن يطالعونا بخير ثمرات الشعر في مصر غير أنهم مع الأسف لم يؤدوا رسالتهم الأداء الكامل . أما الرابع والخامس من هؤلاء الشعراء الخمسة وهما محمود حسن إسماعيل ، وعلي محمود طه ، فقد وجدوا جمهوراً يتذوق شعرهما ويقبل عليه ويرجع هذا الاقبال إلى ما تميز به شعر هذين الشاعرين من رشاقة وموسيقى على أنه شعر ليس فيه من العمق إلا القليل .

وكلاهما متشبع بالفكرة الرومانتيكية غير أن السبيل التي يسلكانها لا تبشر بمستقبل للشعر المصري . فهل لنا أن نتلمس هذا المستقبل في شعر عبد الرحمن بدوي ؟ يحاول عبد الرحمن بدوي وهو من المدرسة الوجودية الألمانية أن يكشف الوجودية في الإسلام ، قد يكون هذا الأمر كبير النفع من الناحية الفلسفية ولكن انتاج عبد الرحمن بدوي من الشعر هزيل جداً .

ويلى هؤلاء الشاعر جورج حنين ، وهو شاعر من مدرسة السيرياليزم يعبر عن آرائه بالفرنسية وربما كانت شهرته في فرنسا أكثر منها في البلدان العربية ذلك لأن الشعر المصري لا يزال بعيداً كل البعد عن السيرياليزم .

قد يكون لنا — بعد هذه العجالة أن نقرر أن ليس للشعر المصري المعاصر كبير أهمية غير أنه كما قد قال لي في العام الماضي الكاتب المصري الكبير الدكتور طه حسين إذا كانت صورة الشعر العربي الذي يقدمه شعراء مصر الآن لا تبعث على التشجيع ولا تنم عن ثروة من الشعر ، فلا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن مصر ليست إلا قسماً من العالم العربي ، وإن الشعر العراقي والشعر اللبناني أهميتهما ، وإن وراء ما ينتجه شعراء هذين البلدين مستقبلاً زاهراً للشعر العربي .

ترجمة : رسالة البني



مَكْتَبَةُ الْمُقْتَضِفِ

الوساطة الروحية

تأليف عبد اللطيف محمد الديباطي — ٤٣٠ صفحة من القطع الكبير — ثمنه ٣٦ قرشا
طبع بمطبعة كوستا تسوماس بالقاهرة

صليتي بالحديث عن عالم الروح قديمة . لقنتها طفلاً عن عجائز الأسرة ليالي كنت أجلس إليهن صغيراً فيفيضن في كلام ما كان أحبه الى نفوسنا وأحرصنا على البدار إليه . وأذكر أننا ما انصرفنا عنه الاّ نحملين على الاكتاف بعد أن يثقل منا الكرى رؤوساً وجفوناً . وَلَفَّظْنَا البيت الى الكتّاب فاذا الفقيه أستاذ مقصود في القرية يعرف من الأمر شيئاً . وما أنسى ذلك اليوم ، وكنت بين نقر من لداتي نرقب انصراف جموع المصلين من صلاة الجمعة ، إذ طالعنا «سيدنا» بقامته المديدة وفي ثوبه الفضفاض فلم نملك فراراً ، وأقبلنا خفافاً الى يده لاثمين ، وانتظمتنا حوله خاشعين ، ننتظر أمره فينا . فمشى يعتمد على أمدنا قامة ، وأصلبنا عوداً ، وقفونا نحن أثره . ولم نبعد كثيراً حتى وجدنا أنفسنا في ظل منزل عامر لوجيه عرف الموطنون حوله منذ أيام ، أن له شاغلاً يشغله . واقتحم بنا الشيخ ساحة الدار الى غرفة مزودة بمجمر ، وأحطنا بالنار بأ كفّ ممدودة يترجرج في مقعرها مداد برّاق علقت به أبصارنا وما ندري شيئاً . وخرجنا يسائل بعضنا بعضاً ، فألقى إلينا كبيرنا نبأ ما نجهل ، وأننا كنا في انتظار روح يحدّثنا ونأخذ عنه ما يجلو للوجيه غامض أمره .

ومضت الأيام وإذا بالحديث نسمعه في حوار آنق وأكثر تفصيلاً من أستاذ لنا في المرحلة الابتدائية ، كان على علم بالقليل ، ولكننا حسبناه عندها العلم كله ، وكنا نخرج بما نسمع فيلتف بنا الزملاء فنحدّثهم في زهو وهم من حولنا صامتون ، وما أعلننا كنا أمناء

فيما ننقل عن الشيخ فقد كان يحلو لبعضنا أن يفسح لخياله أن ينسج فيزيد .
وامتدت يدي إلى الكتب قنية ، منها شيء في الروح ، فعرفت كثيراً ولكنه كان
غير مغنر .

ودارت الأيام وإذا لي في الحياة صديق ، أكرت من الجلوس إليه مع النهار في مكان
عمله ، وعرفت له ميولاً روحية كان يشبعها بدراسات متصلة وقراءة دائمة ، وكان هذا
الصديق الاستاذ « الدمياطي » مؤلف هذا الكتاب . وأحب أن أسبق هذا بكلمة ،
ذلك أن الصديق لم يكن كاتباً ، ولا أئسني ، حين عرفته . وأذكر أن بين يدي له كلمات
كتبها إليّ عرفت فيها طابعه الكتابي وسبيل قلمه . ولقد حدثك هو عن نفسه في صدر
مؤلفه حديثاً أحب أن تعود إليه لتشاركني الرأي فيما أنا حاكم فيه !

لست داعية لفكرة حين أقول إن المؤلف حين كتب هذا الكتاب غيره في جميع
ما كتب ، أو قل إنه في هذا الكتاب ذو لون غير لونه ، وطابع ليس منه طابعه . وما أظن
الأشهر التي احتجب عني فيها هي مصدر هذا التغير منه ، ولا في مثلها ينهض المتعلم
إلى منهضه .

ولم يكن هذا الرأي رأيي وحدي ، بل سمعته من صاحب يعرفون المؤلف معرفتي
في عهده .

تُرى أنؤمن بما آمن به الروحي « الدمياطي » من أن مرد الأمر إلى روح عال ، هو
الذي أملى عليه توجيهه وإرشاده ؟ أم نحن على إيمان آخر ؟

ما أظن أن بين الإيماني نفرة وتضاداً ، فهو ينطق بلسان الروح ، ونحن ننطق بلسان
العقل ، والروح وجدان وشعور ، والعقل محسّات ومقيسات ، وهو صادق فيما يدّعي ، فهو
في غمرة روحية ملأت عليه كل ما يعيش فيه ، ونحن على حق حين نتوقف لأننا لم نخضع
مخاضه فلا تسليم إلا بعد علم ، والعلم يعرف الممكن والمحال وهما وسيلتا إلى الحكم .
وأخاف أن يجرني الحديث إلى الكلام عن الروحانيات تأييداً أو تفنيداً ، وإن وجدت مادته
فلن أجد من صفحات المقتطف متسعاً .

والكلام عن الكتاب واجب والتعريف به نافع :

أفاض المؤلف وكاد لم يترك لمستزید مزیداً . فتحدثت عن الوساطة الروحية في التاريخ، ثم عنها من الناحيتين العلمية والعملية ، كما تحدثت عن العلاج الروحي وألوانه . ثم عرض للروحانية في مصر . ولم يلق القلم قبل أن يقف في خاتم الأبواب يناقش المعارضين ويحاجهم . فأنت تراه قد قال كثيراً ، والناس في حاجة إلى هذا الكثير ليشبعوا رغبة ، ويصلوا إلى ما يريدون من إيمان أو كفران . ولكن شيئاً آخر جدير بأن يقال ويداع . فقد زارني صديق نابه درس في مصر وأوربة ، جامعي بارز ، وكان قرأ الكتاب قراءة منتفع ، ودار الحديث بيني وبينه فإذا هو معجب بمادة الكتاب معظم لها ، وإذا هو يحمل مع رأيه رأي قريب له في مكانته ، يشركه في إعجابه وإعظامه ، وإذا هو يسألني أن أصل حبله بحبل المؤلف يؤدي له الحق معه الشكر موفوراً .

ما أحوجنا إلى أن نقرأ ، وما أحوج هذا الجيل إلى أن يلتفت إلى كل ما ينشر . وما أحوج الجميع إلى أن يقرأوا العبد اللطيف ما كتب ، فهو ثمرة عام أخلص فيه لما يدين به واستجاب لوعي الموحى ، فهجر ميدان عمل رازق ليس له غيره إلى غرفته في بيته حيث يستمع إلى إملاء الملمي . لا يريد غير أن ينفع ويفيد . ولت لنا مع كل مؤمن بفكرته هذا الإخلاص وتلك التضحية . إذاً لأفصح الداعون .

ابراهيم البيار

غرام سنوحي

تأليف يوسف كمال محمد أبو زيد — ١٥٨ صفحة من القطع الوسط — مطبعة زهران بمصر
جميل أن يتجه بعض الأدباء نحو التاريخ المصري القديم فيستلهموه صوراً تعرض من جديد فإن في ماضي البعيد ما لو استطاع الكتاب أن يتناولوه تناولاً فنياً لكان ثروة لا تقدر يغنى بها الأدب المصري الحديث . ولذلك أتجه مؤلف هذه القصة هذا الاتجاه
فعرض صورة قديمة في أسلوب رشيق وإطار رقيق .

ولعله يخطو خطوات ثابتة في هذا السبيل بعد أن ثبتت أقدامه في عالم الفن القصصي ويمكن تخياله من الامتداد والتحليق حتى يقع على الرائع من صور الماضي الغني الوفير فينقله في ابتكار فني قدير ، وعرض بالغ حداً الجودة في التعبير والتصوير .

طريق المجد للشباب

للاستاذ سلامه موسى — صفحاته ٢٣٢ صفحة من الحجم المتوسط — المطبعة المصرية بمصر

إذا رغبت أن تفهم الحياة على أنها صراع بين آراء، وكفاح في سبيل بلوغ الكمال العقلي، وإذا أردت أن تحيا الحياة كلها — لا نصفها ولا ربعها — وإذا شئت أن تنال منها غاية السعادة المخلدة المؤبدة، فعليك بكتاب « طريق المجد للشباب » الذي صدر أخيراً للأستاذ سلامه موسى، فإنه كتاب قد لا يبلغك المجد أو السعادة أو العزة، ولكنه حتماً سيرشدك إلى السبل المؤدية إلى تلك الغايات النبيلة.

فهو كتاب يحتوي على مئتي فصل قصير أو مقالة موجزة، تنهض كل منها على رأي وفكرة وتوجيه أغلبه سديد، ويدور كل باب منه حول نظرية مستحدثة في موضوع من الموضوعات التي تعرض لنا في الحياة يوماً إثر يوم. وهو كتاب فلسفة، فلسفة حية ذات قابلية للارتقاء والتسامي والتعالي، فلسفة تدرك الواقع المائل، وتتطلع إلى المستقبل المدرك، وتتوسل إلى بلوغ ذلك بأساليب في متناول اليد وعند كل امرئ منا.

ومن فلسفة سلامه موسى أن النوم هو ممارسة يومية تكاد تكون موتاً، فاذا أفرط فيها المرء صار نصف ميت لأنه يؤثر الغياب عن الدنيا وعن اهتماماتها ومشاغليها بلجوثه إلى حالة غيبوبة تامة، وهو لذلك ينصح بالاقلاع عن النوم في القيلولة لأنه مجهد للنفوس ومضيعة للوقت.

ومن فلسفته كذلك أن لا يعكف الشاب على اكتناز المال باعتباره غاية في حد ذاتها، بل يتعين عليه أن ينفقه وينتفع بالتجارب التي تترتب على انفاقه. ولكن ليس صرف المال بغير سرف محقوت أو طيش مطلق من القيود الأدبية.

وهو يدعو الناس جميعاً إلى مطالعة سير العظماء لأن هذه السير تحفز القارئ على المحاكاة والتشبه بالمبرزين، أما حياة الجحول والدعة التي تأتي بها القهوة والشارب العامة فهي مفسدة لا يصح للشباب أن يدرّب نفسه عليها منذ حداثة.

والأستاذ سلامه موسى يدعو الى الاستمتاع بالطبيعة بخضرتها ونضرتها ، بشمسها وقرها ونجومها ، بهوائها العليل وبساطتها المحببة ، ويدعو الى محبة الحيوان والرفق به ويدعو الى التأني في الحياة أناة تشمل المطالعات التي يقبل الشاب عليها ، وتشمل الملابس والمشرب وغيرها . لأن الأناة تشعر الانسان بالحياة وتكسبه احتراماً وتعني عليه شخصية ذات عنقوان .

ثم إنه رسول للحب وللإخاء وليقظة الضمير في الشؤون الشخصية والاجتماعية، ورسول للثقافة ولتحرير المرأة من قيود الرجعية القاتلة ولتحرير العقول من تافه الفكر ورواسب النزعات الضارة .



وهكذا دواليك من فلسفات المفكر الكبير سلامه موسى ، يسوقها اليك في جزالة تكاد تعد سذاجة ، ويقدمها لك في « برشامة » . وقد نفعتني الأستاذ سلامه بمؤلفاته نفعا لا يمكن استقصاء مداه ، لأنه علّمني أن الحياة مع ما تطويه من فساد ودواعي قنوط ، أهل لأن يعيشها المرء ، ولأن يقبل عليها ، ولأن يكيّفها التكيف الذي يخفف من غلواء عيوبها . فاذا كنت قاصر الثقافة ، علّمك أن الشهادة لا توازي شيئاً ، وأن أمامك سني العمر تستطيع فيها أن تهذب نفسك بنفسك ، وتعوض ما فاتك من تقصير ، وإذا كنت فقيراً قال لك إن المال المخزن كالجنة الهامدة ، كلاهما ميت . وإذا كنت تعاني قصوراً في شخصيتك دلّك على وسائل ملافة هذا القصور بنفسك وبغير تدخل من غيرك .



فالأستاذ سلامه موسى مربّ ، مربّ جليل . وكتاب « طريق المجد للشباب » هو مدرسة من مدارس الكثرة التي يتعلّم فيها الطلاب ويتخرجون وينهلون موارد فكر لا ينضب معينه .
وديع فلسطين

١ - معجم عطية - في العامي والدخيل

تأليف الشيخ رشيد عطية (ساو باولو) صفحاته ٥٢٣ من القطع الكبير

— دار الطباعة والنشر العربية — ساو باولو برازيل

عرفت الشيخ رشيد عطية على مقعد الدراسة إذ تعلمت قواعد اللغة في كتابه القيم « الإعراب عن قواعد الإعراب » وهو سبعة أجزاء اقتنيت غيرها وزودت بسواها لكنني لم أجن الفائدة التي جنتها من هذه الأجزاء التي تبحث في الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض .

ومرّت السنون تقفوها السنون وأنا أجهل الربع الذي يقيم فيه الشيخ عطية حتى شرعت منذ أربع سنوات في تصنيف كتاب (الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية) سنوياً لكتابي الذي صدر عام ١٩٤٦ عن العرب في أمريكا الشمالية، وأخذت أجاذب اخواناً لي أوفياء ممن يقيمون في البرازيل حبل المراسلة فبدأ لي أن الشيخ رشيداً ما زال على قيد الحياة وقد أسّس في ساو باولو صحيفة يومية كبرى بإسم (فتى لبنان) أولاً ثم (برازيل - لبنان) بعد لآي من السنين .

وكشفت المراسلات التي دارت بيني وبين نقر من أدباء المهجر عن عنوان الشيخ عطية فراسلته في الموضوع الذي حشدت له جهودي ، وركزت مجهودي، ولشهر خلا حمل إليّ بريد المهجر نسخة من (معجم عطية في العامي والدخيل) لوضعه إمام (الضاد) في البرازيل مرتباً على حروف الهجاء كسائر المعاجم الحديثة فجاءت هذه الرائعة المهاجرة حجة على أن الفصحى التي نزل بها الكتاب العزيز ليست بعاجزة ولا بمقصرة متى تعهد لها دماغ عبقرى « وإن مصيبة العربية في جمود علمائها الذي وقف حاجزاً دون تقدمها »^(١).

ولا جدال في أن الشيخ رشيد عطية « قد سجّل اسمه »^(٢) في كتاب الخلود ، في

(١) الاستاذ نظير زيتون في العدد الخاص من (برازيل — لبنان) الذي أصدرته لجنة تكريم الشيخ

رشيد عطية عام ١٩٤٨

(٢) الاستاذ فارس دبغي في العدد الخاص من (برازيل — لبنان) الذي أصدرته لجنة تكريم الشيخ

رشيد عطية عام ١٩٤٨ .

سجلّ النابغين القلائل الذين صنّفوا المعاجم فأثروا بمعجزات طالما استعصت على الجامع العلمية، والندوات اللغوية، وإنه ليصدق على جمهرة هؤلاء العلماء ما قاله كونفوشيوس حكيم الصين عن نفسه: «إنه في سيره وراء المعرفة والعلوم نسي طعامه وأفراحه وأحزانه حتى أنه قضى العمر منقباً دون أن ينتبه إلى أن شمس حياته قد قاربت المغيّب».

ولقد قضى المدقق والمنشئ الكبير الشيخ رشيد عطية أيامه بين الحبار والأقلام ولياليه في الدرس والتقصي، لا ليوجد لنا معجماً ينحو فيه من سبقه من أساطين اللغة، بل ليسد ثلثة، ويبني سداً يرد سيل الكلمات الأعجمية.

لا أقول عن هذا المعلم الصامت إنه وحيد عصره، وفريد زمانه أو إنه أتى بما لم يأت به الأولون والآخرون أو إنه حلّ المعضلة التي تتخبط بها العربية واستعصت على علماءها، ولكنني أقول إنه فتح باباً، ومهد طريقاً، وكمن الذين يدعون الإمامة اللغوية لا يعملون ويشاكسون من يعمل، فعجم عطية بمنحاه فتح في معالجة الأوضاع المستحدثة، ومدرجة لمن يريد الاقتفاء والتوسع والدرس، ومحنة للذين لا يفيدون اللغة بغير المباحثات والمناقشات.

إننا بعد هذه الكلمة العابرة، نحني الامام اللغوي الشيخ رشيد عطية ونكرم فيه علمه الصامت، وعمله الذي يعد فتحاً مبيناً للغة العربية، ونصراً لها. فقد أوضح ما أشكل وبسط ما أبهم، وقرب ما بُعد عن مفاهيم الناس من أصول اللغة العامية وردّه إلى أصله ودلّ على مصدره ومنبعه، ونسأل الله أن يمدّ في عمره ليعمل في حقها، ويؤدي رسالته على أحسن وجه، ويدفع عنها عوادي الأيام، ويسضي على خزانها ما أضفاه في شبابه وكهولته من آثار رائعة، وقطوف يانعة.

٢ - تراثنا الاجتماعي - وأثره في الزراعة

تأليف الاستاذ حليم نجار صفحاته ١٦٠ من القطع المتوسط

مطابع دار الكشاف - بيروت

تقلّب الاستاذ حليم نجار في وظائف كبرى أبرزها، على ما أذكر، كرسي الدائرة الزراعية في جامعة بيروت الأميركية، ومديرية الزراعة والمعادن والحراج العامة في لبنان،

وخبيراً فنياً لوزارة الزراعة السورية في دمشق. ومن عرف الأستاذ نجاراً معرفتي الطويلة به عرف فيه المثل الأعلى للشاب العربي المثقف الواعي.

وفي صيف هذا العام نشر الأستاذ نجار كتابه (تراثنا الاجتماعي - وأثره في الزراعة) حصر به اللثام عن مشاكل العرب الاجتماعية وأمراضهم الاقتصادية ونقائصهم الزراعية. وقد استهل كتابه بالآية الكريمة: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». وانبرى ينادي بني قومه الغاطين في غفوتهم الدهرية، اللاهين في جدلهم البيزنطي، نداء المصلح الغيور، معالجاً مشاكلهم على إختلاف مناحيها، وتلاوينها، وواضعاً أصبعه على مواطن الداء وفي هذا الصدد يقول:

«... وبعد اشتغالي عدة سنوات في حقل الإصلاح الزراعي، وبعد احتكاكي المتواصل وتعرفي بالفلاح وعقليته وتفكيره، وبعلاقة الزراعة بعقلية الشعب، وبالأمر الاجتماعي العامة، بتأعتقد أن النهضة الزراعية تتطلب أعمالاً مصلحين اجتماعيين، يعدّون الفلاح لقبول الإصلاح، ويمهدون السبيل للنهوض الزراعي والانتعاش الريفي بقدر ما تحتاج إلى دراسات فنية ومشاريع هندسية».

ولم يقصر الأستاذ نجار بحثه على الأقاليم الثلاثة (الفلاح، والزراعة، والأرض)، بل تناول في مبحثه الصريح المربعة وملكية الأرض، والتراث الديني وأثره في الزراعة، والعقلية الأدبية، والدولة والحكم، والحياة العائلية، والمدرسة وأثر كل منها في الزراعة.

ولا أراني في هذه المجالة المقتضبة، قد وفيت هذا الكتاب الجامع لأمراضنا وعللنا في الشرق العربي حقه من العرض والتفصيل، إذ أن موضوع الكتاب، جملة وتفصيلاً جدير بكل عربي واعٍ هدفه الإصلاح وتحطيم الأوضاع التي يقوم عليها المجتمع العربي المهلهل أن يقرأ فيرى في فصوله زخوفاً من الأمراض والعلل التي تألبت على هيكل الفلاح العربي في كل قطر ومصر، وقادته إلى هذا الفقر المدقع وصيرته هذا المصير الحزن، وجعلته في مؤخرة شعوب الأرض المتطلعة للوثوب والسائرة قدماً في ركب الحضارة والتقدم والإصلاح.

وليعرف الداء الذي هدّ هيكل الفلاح ورجع تراثنا الاجتماعي القهقري فيعالجه بالدواء الناجع، ويتدارك الأمة وفي أعطافها رفق، والآن ندع دعاة الإصلاح حين لا ينفع الندم! تداركوها وفي أعطافها رفق فلن يفيد اخضرار العود أن يبسا!

البروي المثلّم

(عمان - المملكة الأردنية الهاشمية)

بَابُ الْإِخْبَارِ الْعِلْمِيِّ

وسائل تحسين الزراعة

(لوثر بربنك Luther Burbank) الساحر الأميركي النباتي

موجز ترجمة حياته ومخترعاته بمناسبة انقضاء مائة عام على ميلاده

وسنفصل فيما يلي أعماله الباهرة في
ميادين الزراعة : —

عصا السحر العلمي ومنتجاتها

كثيراً ما قرأنا في أساطير العصور
القديمة ، حكايات على العصا السحرية . تلك
التي كان يقبض عليها مستعملوها فيحوّلون
بها الأسماك ، ثياباً من الديباج ، والصخور
أحجاراً كريمة . أما في هذا العصر الذهبي ،
فعصا السحر ، هي العلم وثماره الشهيبة .
ومن أعجب سحرته وأعظمهم شهرة
« لوثر بربنك » ذلك الذي جعل الأعشاب
البرية الضاربة التي تنبت بين الزرع النافع
فتؤذيهِ أزهاراً أريجة ، كما يصيّر النباتات
السامة فواكه حلوة . فكان تعمّده الله
تعالى برحمته ، في وسعه أن يتناول نباتين
من نوعين مختلفين ، فيولد منهما صنفاً
جديداً من الخضر أو نوعاً حديثاً من الفاكهة
لم يعرف له مثيل من قبل . فاستطاع إنتاج
برقوق بلا عجم ، وآخر طعمه كالكمثرى

ولد لوثر بربنك في سنة ١٨٤٩ وتوفي
سنة ١٩٢٦ وهو عالم أمريكي من أشهر
علماء النبات في العالم . وكان ميلاده في
السابع من شهر مارس سنة ١٨٤٩ . وهو
اليوم الذي قررت حكومة ولاية كاليفورنيا
الأمريكية ، جعله عيداً وطنياً عاماً تعطّل
فيه المدارس جميعها هناك ، إحياءً لذكرى
ميلاد ذلك البحّاث النباتي المبقرى .
وهو من أرومة انكليزية اسكتلندية .

ولا غرو فقد اشتهر باضطلاعهِ بتجارب
شتى في موضوع انتخاب الأصلح للنباتات
وإخصابها عن طريق تهجينها ، تحسيناً
لصفات بزورها . وكان أول مجاح ظفربه
تحسين البطاطس ، وإنتاج أفرانواعها المسمى
بإسمه « بربنك » كما أتيح له في مشتلهِ في
بلدة « سنتاروزا » بولاية كاليفورنيا ،
استنباط كثير من أجود الأثمار والأزهار
والبقول المختلفة . وذلك في خلال الحقبة
من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٩٣ . ثم قضى
نحبه في ١١ أبريل سنة ١٩٢٦ .

إذ كان صنف منها ذا ورق كبير الحجم كبراً غير مألوف ، فضلاً عن بياض لونه إبيضاضاً لم يسبق له نظير . فاحتفظ « برنك » بذلك النوع حتى حان موعد زراعته فزرعه في موسمه التالي .

ولما نضجت هاتيك الأثمار تبين « لبرنك » أنها قد ولدت صفاتها الممتازة عينها ، فتحقق من فورده ، أنه قد ابتدع نوعاً جديداً من البطاطس سوف يكون نصيبه الرواج العظيم . فدأب في الإيمعان في إنتاجه حتى توافر لديه مقادير جزيلة من حاصلاته فعرضها في السوق ، وسميت باسمه « بطاطس برنك » . وفي خلال بضعة أعوام ، أتيح لبلاد الولايات المتحدة الأمريكية ، إنتاج بطاطس من هذا الصنف الفاخر بيعت محصولاته وقتئذ بنحو خمسة ملايين جنيه إنكليزي .

بيد أنه مع أشد الأسف لم ينل « برنك » من ذلك الربح العظيم ، أكثر من ثلاثين جنيهاً إنكليزياً جزءاً للنصيب الذي كابدته في تلك السبيل .

وما من شك أن جزءاً كهذا كان ضئيلاً في مقابل النفقة الجليلة التي نفق بها « برنك » العالم أجمع . إلا أنه على ضؤولته كان نعمة سابعة رضي بها ذلك الشاب وابتهج إذ أتاحت له الانتقال من ولاية مساشوسنر إلى بلاد اقليم كليفورنيا ، حيث واصل فن تربية النباتات وتحسينها . وكان خصب التربة

المعروفة باسم برتليت^(١) وكذلك أنتج « برنك » نوعاً أبيض من التوت الأسود ، وفاكهة سماها برقوق شمش plumcot هي نتيجة تطعيم شجر المشمش بالبرقوق . وهو الذي أنتج خشخاشاً أحمر من الخشخاش الأصفر المألوف . ثم حسن الورد والزنبق واستحدث أقحوان « شاستا » وهو صنف من الأقاح قصير الأجل ، يتاح زرعه طيلة العام ذو أزهار بيض كبيرة تنمو في محيط زهرته المركبة .

كيف شاعت شهرته وماذا ربح أولاً

عكف « برنك » في شبابه على التجارب الخاصة بتحسين النبات . وكان أول نجاح فاز به في هذا الميدان « إصلاح البطاطس » كما سلف القول . ذلك لأن هذا النبات ، من طبيعته ، كونه لا يولد بزوراً . ولكن حدث ذات يوم أن شاهد ، مصادفة ، الشاب « برنك » نبتة بطاطس ولدت عنقوداً من البزور مؤلفاً من ٢٣ بذرة . فما كاد يرمقها حتى جمع بزورها ، ثم غرسها في تربة صالحة لنموها فنضجت في إبانها . ولشد ما كانت دهشته ، حين رأى كل بذرتين منها ولدتا نوعاً من البطاطس يغير الآخر .

(١) كثرى بارتليت ، نوع من الكثرى بلغ أوج النجاح في بلاد إنكلترا وذلك حوالي سنة ١٧٧٠ ثم أدخله في أمريكا رجل أسماه أنوك بارتليت Partlett من أهالي دور شستر في مساشوسنر

النحو أصبح إخصاب النباتات المؤنثة،
أمراً ميسوراً له بغير وساطة الحشرات،
وبالطريقة التي يرغب فيها.

وكانت هاتيك النباتات تفتج بزوراً،
إذا غرست، أنتجت نباتاً هجيناً « مختلطاً »
يجمع مزايا أبويه كليهما « فغدا في وسعنا
أن نقول حقاً إن الإنسان في هذا الزمان
يكاد يستطيع انتاج أي نوع كان يصبو إليه
من الفاكهة أو الزهر، وحسبنا دليلاً على
صحة هذا المذهب، الألوف التي أنتجها
لوثر « برنك »، من هاتيك النباتات، وهي
تعد من المعجائب.

تقصير أشجار الكستناء الباسقة

كان بسوق شجر الكستناء، عقبة كأداء
في سبيل جمع ثمارها. فقسني « لوثر برنك »
تذليل تلك العقبة، إذ تمكن من توليد
شجر لغاشي « قصير جداً » لا يزيد ارتفاعه
عليه في شجيرات عنب الذئب. ذلك أنه
تناول شجر اليابان الذي ينتج الكستناء
الكبيرة الأحجام، فخلطها بالأشجار
الأمريكية التي تنتج الثمار اللذيذة الطعم
من الكستناء، فصار في وسعه توليد ثمر من
الكستناء يجمع بين كبر الحجم ولذة الطعم

جوز له قشر رقيق كالورق

وربى « برنك » شجراً من الجوز، لثمره
قشور رقيقة كالورق، متحريراً بذلك جملة

هناك، واعتدال الجو أصلح منهما في
البلاد التي هجرها. فاستطاع تربية أنواع
جديدة من النباتات.

المعجزات الفنية في تربية النباتات

ومما يحسن ذكره في هذا المقام، أن
« برنك » قضى بقية حياته، مكرساً مجهوداته
للقيام بأعمال زراعية فنية تكاد تعد في
تربية النباتات، من المعجزات.

ولا عجب فقد تيسر له انتاج ملايين
من النباتات. وبلغ عدد ما استطاع تربيته
ذات مرة في مزارعه الخاصة من أشجار
البرقوق نحو ٣٠٠٠٠٠ نوع. ومن أشجار
الخوخ المختلفة الأنواع ٦٠٠٠٠ شجرة بما
فيها الزليق nectarines « الخوخ الأملس »
الواحدة زليقة و ٦٠٠٠ شجرة لوز و ٥٠٠٠
شجرة كستناء « أبي فروة » و ٥٠٠٠ شجرة
جوز و ٣٠٠٠ شجرة تفاح و ٢٠٠٠ شجرة
كمثرى و ٢٠٠٠ شجرة كرز و ١٠٠٠ كرمه
عنب.

ويمكن في موسم واحد من تطعيم
أكثر من ١٠٠٠٠٠ شجرة. وهذا فضلاً
عن اضطلاعها بالتلقيح الصناعي للنباتات
في مساحة واسعة. وذلك بنقله اللقاح من
عضو التذكير النباتي « السداة » من النبات
المقصود، وذلك على فرشاة من شعر الجمل
إلى عضو التأنيث النباتي « مدقة الزهرة » في
النبات الآخر المرغوب تلقيحه. وعلى هذا

الصنبري sunberry وهو ثمر لذيذ نتج من تهجين نوعين من غنب الثعلب الافريقي والامريكي . وهما ذاك النباتان اللذان لم يكنا ينتجان ثمرأ صالحاً للأكل . ومن أغرب ما يذكر في هذا الصدد أن « برنك » قضى ربع قرن من الزمن حتى حصل على هذه النتيجة الأخيرة .

شجرة ثمر بطاطس وطماطم

في آن واحد

ومن أغرب منتجات « برنك » ، نبات يشمر بطاطس تحت سطح الأرض ، وطماطم على أغصانه ، فوق سطحها . وقد تيسر له الظفر بهذا النبات العجيب ، نتيجة تطعيم جذور نبتة طماطم معرشة ، بنبتة بطاطس عادية .

تين خال من الشوك

غير أن أشهر أعماله وأنفع مستنبطاته التين الخالي من شوكه . ذلك لأن هذا الثمر يحتوي عادة على علف كثير صالح للعواشي فضلاً عن كونه يدخر مقداراً كبيراً من المياه ، وذلك في سيقانه الشبيهة بالأوراق المخينة . وهذه المياه ذات نفع فائق جداً في الصحاري المجربة ، حيث يزكو هذا النبات جيداً .

ومع ذلك لا يتيسر للإنسان ، اتخاذه علفاً للحيوان ، خشية على حياتها من أشواكه الالمية التي تغشي سطوحه . وما

هين التكسير . ومن عجب أن الطيور قد تنبت الى ذلك النوع اللين الهين من الجوز فجعلت تلتهمه لتتغذى به فلم ير « برنك » حينئذ مندوحة عن وقف إنتاجه وإعادة قشوره إلى ثخانتها الطبيعية الأصلية ليقبها من الطيور .

توت أبيض من أصل أسود

وخوخ عجمه من اللوز

ثم أنتج توتاً أبيض كبير الحجم بدلاً من النوع الأسود المألوف ، وخوخاً ذا عجم من اللوز عوضاً عن النوى المعروف .

البرتقال أبو صرة

والبرقوق الخالي من العجم

وكان لوثر برنك أول من أنتج البرتقال الخالي من البزور الذي إسمه « أبو صرة » كما أنتج توتاً أسود خالياً من الشوك ، وبرقوقاً بغير عجم ، وغير ذلك من الأثمار اللذيذة المدهشة .

طائفة من الثمار المهجنة

وقد ابتدع فواكه جديدة مماها بأسماء منحوتة من أصولها . ومثال ذلك ثمر اللوجانبري loganberry وهو خليط من الفرايمبواز « التوت الأفرنكي » والتوت الأسود . ثم فاكهة أخرى هي البامكوت أي البرقوشمش وهي هجين من البرقوق والمشمش كما سلف القول . وكذلك استنبط ثمر

يخلق دائماً أنواعاً حديثة مختلفة من النباتات وكثير منها جيد ولكن قلما يظن لها العباد، فلا يحصلون عليها، ولا ينتفعون بها النفع المنشود. وقد نجد لها في الغابات، والحقول، وفي حدائقنا ومزارعنا. لأن الباري جل شأنه يخلقها دائماً. فيجدر بنا إذا البحث عن هاتيك الأنواع الحديثة من الأزهار التي قد تكون أجمل لوناً من غيرها أو ألطف شكلاً في أوراقها، أو أعطر رائحة من شواها، أو أحسن حجماً أو أكثر صلابة من أخواتها.

وربما تكون الفاكهة الجديدة أجود من القديمة حجماً أو أجمل لوناً أو أشهى طعماً أو أعظم إنتاجاً أو أشد صلابة وكذلك قد تكون البقلة الحديثة أكبر من القديمة حجماً أو أجمل شكلاً أو ألذ طعماً أو أكثر إنتاجاً أو أسرع نضجاً في موسمها أو أعظم صلاحية لتعبئتها في العلب أو أكثر صلابة من سابقتها.

وقد يصلح العشب البري الضار غذاء نباتياً للإنسان. لأن جذوره الصالحة للأكل تكون أكثر من سواها أو ألذ منها طعماً أو أجمل لوناً أو لصلحية أوراقه أو سيقانه للطبخ قصد أكلها. كما يمكن العثور في الغابات على أشجار أسرع إنتاجاً للخشب من غيرها. وبهذه الوسيلة كثيراً ما يستطيع الباحثون معاونة الخالق القدير على امتنباط فصائل جديدة تتميز بالزوايا التي

من شك أن هاتيك السيقان أوراق مكيفة تكيفاً طبيعياً شاذاً، يولدها هذا النبات ليدرأ بها الحيوان، عن التهامه، بصفة كونه غذاء وشراباً سائعين له. شاهد برنك تلك الحقيقة، فعزم على استنباط تين خال من شوكة يستطيع الحيوانات التغذي به، فشرع في تنفيذ رغبته لنيل أمنيته، فانتخب من نباتات التين الشوكي، أنواعاً كانت أقلها أشواكاً وأقصرها أطوالاً. فواصل تربيتها وإنتاج نباتات جديدة منها حتى كان يوماً ما يحول في مزارعه بين آلاف من نباتات التين الشوكي اذ لمح بينها صنفاً بلغ طوله ثمانى أقدام، خالياً من شوكة كل الخلو، فابتهج ابتهاجاً عظيماً.

ومن ذلك النبات ولدت شجيرات جديدة خالية من شوكة. فأصبح السائح الذي يطيب له التجوال في المناطق الأمريكية القحلة التي قلما ينمو فيها أي نبات كان، يشاهد مئات الألوف من تلك النباتات التي استنبتها «برنك» لتصير علفاً نافعاً أيما تقع للحيوان كل عام، فلا غرو إذا رأينا حكومة ولاية كليفورنيا تتخذ قراراً بمجعل يوم ذكرى ميلاد هذا الساحر النباتي عيداً سنوياً تعلق فيه مدارسها جمعا.

كيف تنشأ النباتات الجديدة

وأيّن توجد؟

إن الخلاق المعبود سبحانه وتعالى،

نصبوا اليها « وذلك في حدود معقولة طبعاً »
لأنه يبعد جداً إمكان ابتداع تفاح زرق
أو برتقال أرجواني اللون .

وسائل تحسين النباتات

وتنشأ الأنواع الجديدة من النباتات
بثلاث وسائل إذ في بعض النباتات ينتج النوع
الجديد (أولاً) من كل بذرة على حدة .
(ثانياً) في أحوال أخرى تنشأ الأنواع
الجديدة نشوئاً خفائياً و (ثالثاً) أما الوسيلة
الثالثة فهي التهجين بين الأنواع . ويقوم
بهذا التهجين ، النحل والطارئ الطنان والريح .
وفي وسع الزارع الذكي أو البستاني
العبقري ان يتعلم طريقة التهجين هذه .
ولكل من ذينك العاملين النشيطين ، أفضل
أسوة في « لوثر برنك » ذاك الذي قام في
حياته بعشرات الآلاف منها . فاستحدث
عدداً جماً من أنواع النباتات الجديدة التي
ثبت نفعها .

الطريقة الأولى للتحسين النباتي

ولنبداً الكلام بشرح طريقة تولد النبات
من البزور — فنقول : — تتكاثر البقول
مثل البسلة والفول تكاثراً معتدلاً بحثاً من
بزورها . وهذا ينطبق على كثير من الأزهار
ومنها أقحوان شاستا والبسلة الحلوة . أي
إن الوليد النبات من البزرة يشبه أباه كل
الشبه (أي النبات الذي تولد منه)
ولكن قد يحدث أن يشذ عن هذه القاعدة

بعض النباتات ، إذ يختلف الطفل عن أبيه
اختلافاً عجيباً . فإذا غرست مثلاً بذرة بطاطس
أو بذرة زهرة داليا وهذه تشبه النجمة
شكلاً « فلا يبعد أن تجني نوعاً جديداً من
كل منهما . فان حدث هذا فلا يمكن أحد
تعليل ذلك الانقلاب تعليلاً مقبولاً . إذ
المألوف أن البطاطس أو الداليا تتولد عادةً
من درنتها ، أكثر مما تنتج من بذرتها ليظل
كل منهما مشابهاً لجنسه جد المشابهة
ولا جرم أن الفواكه جميعاً تنتج أنواعاً
جديدة عند ما تفرس بزورها في التربة .
فإذا غرست مثلاً ١٠٠ بذرة أخذتها من
شجرة تفاح من النوع الأمريكي الأحمر
اللذيذ الطعم ، فيسوغ أن تحصل على ١٠٠
نوع جديد من التفاح . وقد يكون جلها
أقل جودة من الشجرة التي نمت فيها هاتيك
البزور . ولكنك إذا غرست مثلاً ١٠٠٠٠
أو مليون بذرة تفاح فأنك تجد بينها بلا شك
بذرة أو أكثر تنتج شجرة تثمر ثمراً
أنفع من الأنواع التي توجد عندنا في بعض
الأحوال .

تطعيم الشجر

والطريقة الفريدة التي تقضي الى
الحصول على عدد إضافي من أشجار التفاح
التي تثمر النوع نفسه كنوع جديد منه
هي تطعيم شجر التفاح الصغير « المتولد من
البزر » بغصينات من الشجرة الأصلية .

الزراع جني أنواع كثيرة مربحة جداً من
البزور التي يقوم بغرسها في حقله .

كيف اكتشف بربنك البرقوق

المسمى باسمه

ومن التجارب الأخرى التي جرّبها
بربنك ، وكان التوفيق فيها حليفاً له ،
اكتشاف البرقوق المشهور باسمه ، إذ كانت
تلك الشجرة واحدة من بضع أشجار برقوق
نبتت أصلاً من بزرّة غرست في بلاد اليابان
قبلئذ بأحقاب ، ثم استوردت الى بلاد
الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٨٨٤

حيث صار برقوق بربنك من مصادر الربح
لزراعه هناك ، وفي كثير من أرجاء العالم .
وينتج ربحاً يفوقه في سائر أنواعه حيث
تزرع منه مقادير جزيلة على ساحل المحيط
الهادي . ولما ظفر بربنك بذلك الفوز الباهر
سنة ١٨٨٥ شرع يغرس عشرات الألوف
من بزور البرقوق حتى بلغ مجموع ما حسّنه
منها ١٣٥ نوعاً . فأصبح كثير منها أساساً
لحرفة زراعة البرقوق المنتشرة انتشاراً
عظيماً في إقليم كليفورنيا وغيره من الأقاليم
الواقعة على ساحل المحيط الهادي حيث يربح
زراعتها كل عام ملايين الدولارات من بيع
محصولات البرقوق المتولدة من أشجار
نتجت من البزور التي غرسها بربنك نفسه .
ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أن
بربنك كان في زمانه ، من دأبه التعميل في
اكتشاف أنواع جديدة من شجر الفواكه

ثم إن البراعم ، لا الجذر هي التي تعين
نوع التفاح المزروع جنيته من تلك الشجرة
ولا ريب أنه يحتمل على الدوام ، أن
تعثّر على نوع جيد جديد وذلك بين مائة
الشجرة الأولى الناتجة من البزرة . ومثال
ذلك أن بربنك بذّر ٢٩ بزرّة تناولها من
بطاطس Early Rose وذلك من حديقته في
إقليم مساشوستر حيث ولد وقضى زمن
شبابه ، فعثر بينها على نوعين جديدين جيدين .
أما السبع والعشرون بزرّة الباقية فتبين
له كونها غير صالحة على الإطلاق .

وبيع أحد زينك النوعين الجديدين
الى تاجر من باعة البزور ، فقام بتحسينه .
وهو النوع المشهور باسم (بطاطس بربنك)
وما برح هذا الصنف يزرع في مساحات
واسعة من فدادين إقليم ايداهو وغيره من
الولايات المتحدة الأمريكية الواقعة في
الشمال الغربي لتلك الجمهورية . وكثيراً ما
يباع هذا الصنف باسم «بطاطس ايداهو»
ولكن يطلق عليه اسم (بطاطس بربنك)
في سائر البلاد التي تزرعه .

ومع ذلك ينبغي أن نذكر أنه عقب
تلك التجربة الأولى ، التي صادفه فيها حسن
الحظ ، فعثر على ذلك النوع الجديد الجيد
من البطاطس على أقل تقدير ، جعل يغرس
ألفاً أخرى من بزور البطاطس . غير أنه
لم يفز قط بنتائج طيبة . وانما نذكر هذا
توكيداً للحقيقة . وهي إنه يجب ألا يتوقع

وذلك بتطعيم أشجارها القديمة بأجزاء من الأشجار المتولدة من البزور .

وكثير من أنواع الفواكه والأزهار الأخرى التي لدينا الآن ، كانت أشجارها متولدة أصلاً من البزور . وقد وجدت في أماكن لم يغرس بزرها فيها مخلوق ما . ومثال ذلك التفاح الذهبي اللون ، اللذيذ الطعم . فقد كان ثمر شجرة بريّة تولدت من البزور « ونحن نسميه بريّاً » لأنه لم يكن من غرس البشر . إذ عثر عليه مكتشفه ، في بستان من بساتين التفاح المنتشرة في ولاية فرجينيا الغربية .

أما أغلب أنواع الفواكه والأزهار الجديدة التي نرى أسماءها مدوّنة في قوائم الأسعار والأصناف ، فهي ثمار أشجار تولدت من البزور واكتشفها عرضاً ، تجار البزور ، إما في حدائقهم الخاصة ، وإما عثر عليها بعض عملائهم فباعوا هذه الأنواع الجديدة إلى تجار البزور فحسنوها .

أقحوان شاستا

ومثال ذلك: « أقحوان شاستا » الذي حسنه لوثر برنك . وهذا مع الأسف ، لا تجده مقترناً باسم برنك مستحدثه ، وذلك في أية قائمة كانت من القوائم المطبوعة فيها أسماء الأزهار ، بل تجد كل بائع من باعة البزور ، يحسن أنواعاً جديدة مما اكتشفه هو شخصياً إما في مزارعه التي يربي فيها النباتات . وأما من الأصناف التي يعثر عليها

بعض عملائه . فيطلق كل منهم (التجار) أسماء جديدة على هاتيك الأنواع الحديثة ، على حين يكاد اسم المولّد الأصلي لهذه السلالة من الأقاحي البيض الكبيرة . يصبح نسبياً منسياً . كيف تنشأ الأنواع الجديدة

من النباتات نشوءاً فجائياً

أما الطريقة الثانية الخاصة بنشوء أنواع جديدة من النباتات ، نشوءاً فجائياً ، ونعني بها ، اختلاف الوليد عن والديه في المزايا الوراثية ، ومثالها التفاح الذي وجد على شجرة Delicious ديليشس (١) التفاح الأمريكي اللذيذ ، كجزء من غصن واحد من أغصانها . وهو التفاح الأمريكي الأحمر المحسّن الشهى الطعم ، المشهور بعظم مزاياه . وكان مختلفاً عن سائر أنواع التفاح الذي كان نامياً على الشجرة نفسها التي حدث فيها هذا التحول الفجائي . ولسنا ندري حتى الآن كيف نشأ هذا التحول الفجائي في براعمها دون أصولها ولكنه يقع لاحالة . وهو مصدر نشوء الأنواع التي تستجدين النباتات وفي وسع أي امرئ كان مشاهدته .

والطريقة الثالثة — هي الخاصة

بالتجين . والمعروف في شأنها ما يأتي : — كان من المظنون منذ أحقاب مديدة ، استحالة اتحاد نوعين من النبات بعضهما مع بعض ، عن طريق نقل اللقاح من أحدهما

(١) نوع محسن من التفاح الأمريكي الأحمر اللون ، مشهور بلذته طعمه وجودة صنفه .

إلى أزهار النوع الآخر . ولكن بربك أثبت أن هذه القاعدة تعد من القواعد التي لا يعول عليها مطلقاً ، إذ قال « إن كثيراً من أنواع النباتات يتاح تهجينها . » ومما لا مرأى فيه ، أنه طالما صرح بأن خير الوسائل للحصول على أنواع حديثة أجود من القديمة ، هو القيام بإحداث التهجين فيما بينها .

وغني عن البيان أن التهجين يتطلب طول الأناة ويحتاج إلى زمن مديد — ولا شك في كونه يستحق ذنبك الأمرين . ومع ذلك فهو وسيلة هينة لا تقتضي غير نقل اللقاح من زهرة إلى أخرى . ولكن هذا العمل ينبغي أدائه قبل وصول اللقاح إلى مبيض الزهرة التي نود تلقيحها باللقاح الذي نتناوله من أسدية نبات آخر « أي أعضاء التذكير فيه »

وأضمن الطرق لنجاح هذا العمل ، انتخاب زهرة تكون غير مفتحة . على أن تثق كونها ليست من الصنف الذاتي الأخصاب . ثم تجذب أوراقها إلى الخلف لتستطيع مشاهدة باطن النورة . وإذا كانت أسدية الزهرة لم تنشق بعد لكي يفلت منها اللقاح المطلوب . فينبغي لك شقها جميعاً بالمقص ليخرج منها اللقاح المنشود . وإن كانت المدقة « عضو ثأنيث الزهرة » لزجة دل ذلك على استعدادها لتلقي اللقاح ، فعليك أن تمسها مساً خفيفاً بالفرشاة الحاملة

اللقاح فيلتصق بها . أما إذا كانت المدقة غير مستعدة للأخصاب ، فيلزم إما اغلاق النورة مع قبضك على أوراقها جميعها بأية وسيلة كانت . وإما بربط كيس ورقي حول النورة لكيلا يلحقها أي لقاح آخر . وإن كانت المدقة متأهبة للتلقيح ، فكل ما ينبغي لك عمله ، هو نقل زهرة من النبات الآخر الذي ترغب في استعماله في التهجين ثم تمس المدقة المرغوبة بالفرشاة الحاملة اللقاح المطلوب مساً خفيفاً . ومتى تم ذلك العمل ، تغدو النورة في غير حاجة إلى الوقاية لأن مدقتها عند ما تقبل اللقاح مرة واحدة لا يستطيع أي لقاح آخر تغيير التهجين .

وحينئذ يأخذ اللقاح مجراه في النور في باطن المدقة نمواً أسرع قليلاً من المألوف . فلا تحتاج تلك الزهرة فيما بعد إلى أي لقاح آخر ولهذه الطريقة نتائج باهرة في الورد والروند وأغلب النباتات الأخرى . أما النباتات الذاتية اللقاح فتلقيحها أمر عسير ، وكل ما يمكن الاسترشاد به في هذا السبيل من التعاليم هو « بذل الجهد مراراً »

وعندما تنبت الأشجار المتولدة من البزور ، تصبح أول خطوة تخطوها وأهمها اختبار أجود هاتيك الأشجار ، وإبادة سائرها غير الجيدة . وهذا التصرف يقتضي جلدأً كثيراً وحكمة أكثر مما يتطلبهما انتقاء الأصناف التي تكون أجود ما لدينا منها . والسبب الوحيد الذي يقضي علينا

تلك الشركة للتعبئة في العلب . وما زالت تستعمله الى اليوم ، ففداً أساساً للحرفة الكبرى الخاصة بتعبئة البقول في كولورادو

وعلى هذا النمط عينه يتيسر الحصول على أنواع محسنة من الغلال كالذرة الشامية والزمهر والشعير والقمح وغيرها من الحبوب الكثيرة . وذلك بالانتخاب المتقن . ونعني به الاحتفاظ بالنباتات التي تفوق بحاسنها الثابتة كل ما يكون لدينا من أمثالها . فحتى اكتشفت نوعاً جديداً من نبات تنج من مجهوداتك الشخصية ، فلا بد من شعورك حينئذ بتأثير شديد يشجعك على تحسينه ، ولو لم يكن أغزر الأصناف الأخرى الموجودة ولكن يجدر بك في مثل هذه الحالة ألا تخضع لذلك الاغراء . وقد أثبت برنك هذا بقوله « عليك أن تتذرع بالصبر ربما يحين موسم آخر أو موسمان ، وربما تعثر على نوع آخر أسمى من الصنف الأول ، فتعزبه كل الاعتزاز ، إذ يحوز قبول الناس وينال معاضدتهم ، فتجظى بإقبالهم عليه ويعم خيره الجميع » .

ومتى أحسنت اختيار أي نوع حديث فائق من النباتات ، هان عليك تحسينه . لأن تجار البزور مستقبلي النباتات يبحثون دائماً عن الأصناف الجديدة قصد تحسينها كل عام . وكانت الطريقة التي نهجها لوثر برنك في حياته (رحمة الله عليه) بيع النوع الجديد

بالاحتفاظ بأية نباتات كانت ليست أرقى من الأصناف التي عندنا في جوف من أحواض زرع الأشجار ، المزعم توليدها من البزور ولو لم تكن تلك النباتات من الأنواع الممتازة ، فهو قصد تهجينها في مستقبل الأيام .

أما النباتات التي تتكاثر من البزور كثراً شديداً بأصولها ، فقد ينشأ منها بعض أنواع حديثة . وذلك بالإلتقاء وحده . ومثال ذلك إن برنك تلقى ذات مرة طلباً من « شركة إمبسن الأمريكية الخاصة بتعبئة البقول في العلب التي مقرها في كولورادو » يقضي بإنتاج نوع جديد من البسلة الخضراء مما تعبأ في العلب . وأعربت تلك الشركة أنها في حاجة الى صنف تنضج قرونها جميعها في وقت واحد ، على أن تكون أحجام القرونها مساوية بعضها لبعض ما أمكن ، وحبوبها صغيرة . فاصدة بهذه الشروط أن تيسر على زراعتها حصدها بأجمعها مرة واحدة من حقولهم بالآلات الكهربائية . فيسهل حينئذ على الآلات تفريط البسلة من قرونها ، فتتوفر بهذه الطريقة متاعب بشرية جمّة . وقد أثرت الشركة البسلة الصغيرة الجبوب ، على غيرها لأنها تباعها لطلابها بأعلى سعر . فاستطاع لوثر برنك في ثلاثة أو أربعة أجيال ، إنتاج نوع جديد من البسلة الخضراء اشتهر باسم بسلة إمبسن Empson احتكرته

عليك ما حيت تشجيع كل من يتصل بك في عملك الزراعي ، على التنقيب عن الأنواع الجديدة من النباتات . لأن هذه الأصناف تتولد طبيعياً دائماً . وفي وسعنا نحن معاونة الخلاق العظيم بوساطة التهجين . وقد آن الأوان لنقوم باختيار الأصلح على الدوام إذ أننا في حاجة دائماً إلى الأنواع الجديدة الممتازة من الغلال والأزهار ، ولا ضرر على الإطلاق من إقبال الناس وتكاثرهم على حرفة تحسين النباتات .

الذي يحصل عليه من فوره ، إلى تاجر من تجار البزور ، بأعلى سعر يستطيع إحرازه (ويتاح في أمريكا بيع النوع الجديد من البزور ، إلى أي تاجر من تجارها مقابل استيلاء البائع على أتاوة ، هي نسبة محدودة في المائة من أثمان المقادير التي يبيعها التاجر من البزور نفسها في كل عام) ثم ختم الكاتب الأمريكي هذا البحث بكلاماً لما كنت مشتغلاً مع ربك من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٣ كان ينصحني دائماً بقوله : —

ساعة منبهة توثق بالمعصم

تلك الحشرة إذ وضعوا بعضاً من مقومات تعريدها في تركيب الآلة الطنانة في الساعة الموقظة للنائم . ويتولد فيها الصوت بمطرقة دقيقة في باطن تركيب الساعة ، تقرع دبوساً معدنياً قرعاً خفيفاً على الغطاء الفولاذي العادم الصدا الذي في ظهر الساعة . وللساعة غلاف ثانٍ خارجي فيه أربع فتحات صغيرة . وهذا الغلاف يغطي الغطاء الداخلي . ثم إن الصوت الذي يتولد من المطرقة الدقيقة ، يتردد عن طريق الثقوب بين ذينك الغطاءين ، فينتج عن ذلك صوت منبه بهيج عوض جندي

أحدث ما استجد في صناعة الساعات وأعظمه ، ساعة منبهة توثق بمعصم صاحبها فتوقظه صباحاً من نومه أو تذكره بميعاد مضروب بينه وبين صاحبه أو قربه . وهي مصنوعة من الصلب (١) الذي لا يصدأ ، مضبوطة التوقيت . ومن أغرب ما يذكر في شأن اختراع هذه الساعة الطريفة كون مخترعها قد اقتبس طريقة التنبيه التي تحويها ، وذلك من حشرة حقيرة هي الصرصار وهو مع صغر حجمه ، يُسمع صوته جلياً من مسافات قاصية . فقلد المهندسون صرير

(١) وصفت هذا الصلب في مقال سبب إبتوان (معادن الحرب) نشر في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٤١ ومما جاء فيه « إن لهذا الفولاذ العادم الصدا منافع في صناعة الطائرات ، إذ تصنع منه صناديق للدخائر الحربية ، ومجار لمرور الوقود وأخرى لغذف العادم منه أو لغذف القنابل ، ورفوف لمل القنابل وصناديق لخرطوش اللازم للمدافع الرشاشة . وقد اخترع هذا الفولاذ في بدء الأمر للاعتناء به في زمن السلم ثم اغتصبه مثيرو الحروب . فأخذوا يصنعون منه الطائرات وغيرها كما ذكرنا .

٣٢٠٠٠ رطل طالب

في مدارس الولايات المتحدة

ومما أدّى الى هذه الحالة التي نشأت في المدارس الأمريكية بعد الحرب ويعتبر من أهم عواملها ، فضلاً عن هجرة جماعات كبيرة من السكان الى مختلف جهات الولايات المتحدة ، زيادة نسبة المواليد في سنوات الحرب والسنوات التي تلتها الى درجة كبيرة لم يعرف لها مثيل . فقد بلغ الأطفال الذين ولدوا في أثناء الحرب السن التي تؤهلهم لدخول المدارس وأخذ عدد تلاميذ المدارس الابتدائية يزداد سنوياً وينتظر أن تستمر هذه الزيادة بحيث تزيد على ما عرف عنها في جميع الولايات تقريباً ، ولا تستثنى منها إلا الولايات التي أصبح عدد سكانها بعد انتهاء الحرب أقل مما كان عليه في السنوات التي سبقت نشوب الحرب .

وهناك مثل آخر أثر على حالة التعليم بعد انتهاء الحرب ألا وهو تسريح الجنود والتحاقهم بالمدارس والكليات لإتمام تعليمهم على نفقة الحكومة بمقتضى وثيقة الحقوق الخاصة بهم .

ويضاف الى ذلك شدة اقبال السكان بجميع طبقاتهم على التعليم . وقد زاد الاهتمام بالدراسة في رياض الأطفال وهي نوع من أنواع المدارس خاص بتربية الأطفال الذين يبلغون الخامسة من أعمارهم . ويزداد باطراد

عند ما دقّت الأجراس في أوائل شهر سبتمبر الماضي معلنة افتتاح السنة الدراسية الجديدة في الولايات المتحدة كان هناك ما يقرب من اثنين وثلاثين مليوناً من الصبية والفتيات والشبان والشابات على استعداد لدخول مختلف المدارس التي تبدأ الدراسة فيها في رياض الأطفال وتنتهي في الجامعات . وقد زاد عدد الطلبة المقيدة أسماؤهم في سجلات المدارس بما يقرب من خمسة ملايين عما كان عليه في سنة ١٩٤٠ وترجع هذه الزيادة ، الى حد كبير ، الى تطور أحوال سكان الولايات المتحدة في سنوات الحرب والسنوات التي تلتها .

أدّت الحرب الى انتقال جماعات كبيرة جداً من السكان بحالة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الولايات المتحدة . فقد هاجر عدد كبير من السكان عبر جبال روكي ، الى الولايات الواقعة على ساحل المحيط الهادىء مما أدّى الى ازدهار المدارس الآن في تلك المنطقة الى درجة فاقت طاقتها .

وانتقل بعض السكان أيضاً من المناطق الزراعية الى المدن كما انتقل غيرهم من المدن الى الضواحي . ومن البدهي ان هجرة السكان قد زادت عدد التلاميذ في منطقة وأقصته في أخرى .

الرابعة عشرة والسابعة عشرة وتمتفرق دراستهم أربع سنوات ، فلا يجدون صعوبة في الوقت الحاضر في الالتحاق بالمدارس العليا والمدارس الثانوية . فقد بلغ عدد تلاميذ المدارس الثانوية ٦٣٠٠٠٠٠ في سنة ١٩٤٧ . وينتظر أن يزيد في هذه السنة بنسبة ١٪ ، ولكن إدارة المعارف الأمريكية تقدر انه سيبلغ ٧٢٠٠٠٠٠ في سنة ١٩٥٥ . ولم يبلغ أكبر مواليد سنوات الحرب سنًا العمر الذي يؤهلهم للالتحاق بالمدارس الثانوية . وليس معنى هذا ان هذه المدارس لا تواجه مشاكل فقد استلزمت شدة الاقبال على التعليم الفني اعداداً ما كن جديدة وأدوات جديدة . وزاد عدد الذين يدرسون الموضوعات التجارية والاقتصاد المنزلي والزراعة والحرف والصناعات بما يتراوح ١٨٪ و ٥٦٪ منذ سنة ١٩٤٦/١٩٤٧ الدراسية .

ومع ان عدد الملتحقين بالكليات والجامعات ما زال أزيد بكثير على عدد في السنوات التي سبقت نشوب الحرب فإنه لم يزد على الرقم القياسي الذي بلغه بعد الحرب نظراً لتناقص عدد الملتحقين من الجنود المسرحين . وينتظر أن يتراوح مجموع الطلبة الذين يترددون على الكليات والجامعات في هذه السنة بين ٢٣٠٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠٠٠ وينتظر أن يصل في سنة ١٩٥٥ الى ٢٦٠٠٠٠٠ . ويبلغ عدد الملتحقين من

عدد الشبان الأمريكيين الذين يرغبون في الاستمرار في الدراسة بعد انقضاء مدة التعليم الاجباري الذي يلزم به ، في معظم الولايات ، من تتراوح أعمارهم بين السادسة والسادسة عشرة . وقد اشتد الاقبال على مختلف نواحي الدراسة .

وتدل البحوث التي قامت بها ادارة المعارف الأمريكية وهيئة تحرير مجلة « أنباء الولايات المتحدة والعالم » مدى تأثير الاقبال على المدارس على حالة التعليم في الولايات المتحدة . فقد أثرت زيادة نسبة المواليد على المدارس الابتدائية التي يقبل فيها التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثالثة عشرة . ولوحظت شدة الاقبال على التعليم في المدارس التي يتعلم فيها صغار التلاميذ ففي سنة ١٩٤٧ دخلت المدارس أولى أفواج الأطفال الذين ولدوا في خلال سنوات الحرب ، وقد بلغ عدد أفرادها ٣٠٨٧٠٠٠ . أما في سنة ١٩٤٨ فينتظر أن يبلغ عدد أفراد الأفواج التالية ٣٣٦٨٠٠٠ . وينتظر أن يلتحق بالمدارس في سنة ١٩٥٢ نحو ٣٧٠٠٠٠٠ تلميذ جديد ويحتمل أن يبلغ مجموع التلاميذ في المدارس الابتدائية في سنة ١٩٥٥ نحو ثمانية وعشرين مليوناً بحسب تقدير ادارة المعارف الأمريكية .

أما التلاميذ الذين يتعلمون في المدارس الثانوية ، وهم الذين تتراوح أعمارهم بين

سنة ١٩٤٠ وتقدر ادارة المعارف الامريكية أن أعمال المدارس تستدعي صرف ٥٠٠.٠٠٠ ر. ١١.٠٠٠ دولار يصرف الجانب الأكبر منها وقدره ٥٠٠.٠٠٠ ر. ٧.٤٠٠ دولار على المدارس الابتدائية والثانوية .

ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من المدارس الابتدائية والثانوية لجأت الى طريقة الدراسة على دفعتين يومياً لكي يلقن المدرسون بعض الطلبة الدروس في الصباح ويلقنونها للبعض الآخر بعد الظهر . أما الكليات والجامعات فقد استمرت في تنفيذ برامج الدراسة المسائية . وفي عدة ولايات توجد المدارس في أماكن متقاربة للارتفاع بأبنيتها الى أقصى حد ممكن في توزيع التلاميذ ربما يتم تنفيذ البرنامج الجديد لبناء المدارس الذي ينتظر أن يؤدي الى زيادة ٢٠٠.٠٠٠ غرفة على الغرف الموجودة حالياً في جميع مدارس البلاد وعددها حوالي مليون غرفة .

جنود ومجنندات الحرب الأخيرة مليوناً أي انه يقل بنحو مائة الف على ما كان عليه في سنة ١٩٤٧ . وقد أمضى معظم طلبة وطالبات الكليات منهم ومنهن سنتين في دراسة المقرر التي تستغرق أربع سنوات وبذلك أصبحت الحاجة ماسة الى إمكانية كافية وأدوات كافية في المعامل .

فما هي الاجراءات التي تتخذ الآن لمواجهة هذا الضغط الناشئ على الاخص عن قلة أبنية المدارس ، ومن الواجب العمل على تقليله بعد سنوات قليلة ؟ لقد وضع برنامج واسع النطاق للبناء وسارت اجراءاته الى درجة اعداد الأموال والمهمات اللازمة لتنفيذه . ونذكر في هذا الصدد ، مثلاً ، ان وزارة التجارة الأمريكية صرحت بأن أكثر من ٣١٥.٠٠٠ ر. ٣١٥.٠٠٠ دولار قد صرفت على المعاهد العلمية العامة والخاصة في الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٤٨ مقابل ١٨٠.٠٠٠ ر. ١٨٠.٠٠٠ دولار صرفت في سنة ١٩٤٧ و ٨٨.٠٠٠ ر. ٨٨.٠٠٠ دولار صرفت في

ازدياد الطيران المدني في اميركا

بزيادة قدرها ٢٨٤ ر. ٥ طائرة على عددها في نفس التاريخ من العام الماضي . وفي نفس الفترة ازداد عدد المطارات المدنية في البلاد بواقع ٤٧ ر. ١ مطاراً فبلغ مجموع المطارات ٩٢١ ر. ٥ مطاراً .

أذاعت مصلحة الطيران المدني الأمريكية استمرار ازدياد عدد الطائرات والمطارات المخصصة للطيران المدني في الولايات المتحدة في أول أكتوبر عام ١٩٤٨ كان عدد الطائرات المدنية في أمريكا ٩٧.٠٢٥ طائرة

كلية مسائية لتعليم الكبار

يمثلون جميع المهن المختلفة ، فمن ربة منزل الى رئيس اتحاد . وفي بعض الاحوال كان جميع أفراد العائلة أعضاء بالمدرسة .

وتقدم الكلية المسائية أربعة أنواع من البرامج . فهناك للعاملين الذين لا يمكنهم أن يخصصوا للكلية سوى ساعات ما بعد العمل — سبعة برامج في التجارة والآداب والهندسة وهي في مستوى الدراسات التي تؤهل لدرجات جامعية . وتوجد للذين يرغبون في دراسات تحضيرية قصيرة وشاملة برامج مهنية تمرينية تتماثل برامج الدبلومات المتوسطة . وفي الحسابات وإدارة المكاتب والاعلان دراسات لأولئك الذين يرغبون في زيادة المامهم ومعارفهم بمهنتهم ، أو الذين يرغبون في الاشتغال بنواح جديدة .

أما أولئك الذين يرغبون في توسيع مداركهم الثقافية فتقدم لهم دراسات في الآداب . وأما الذين يهدفون الى التسلية المفيدة فيقومون بدراسات لطيفة مثل صنع الاواني والنحت والتصوير وتنظيم الحدائق وتصميم الملابس .

يمكن للمرء أن يلمس التسهيلات التي تبذلها كليات الولايات المتحدة وجامعاتها لتعليم الكبار ، بالإضافة للشباب — في الكلية المسائية التابعة لجامعة سنسناتي (اوهايو) . ولقد اهتمت هذه الجامعة وهي الاولى في الولايات المتحدة التي تملكها وتديرها البلدية — منذ زمن طويل بأن تجعل التعليم متفقاً مع حاجات الجماعة الثقافية والاجتماعية .

لقد أنشئت الكلية المسائية في عام ١٩٣٨ وهي الآن — كما يقول العميد فراثك نويفر — واحدة من أكبر المعاهد المماثلة في الولايات المتحدة . وفي وصفه لبرنامجها ذكر العميد أن هيئة الكلية تنظم أكثر من ثلاثمائة دراسة في النواحي الثقافية والمهنية والتسلية إجابة للرغبات الميينة أو المتوقعة لسكان المدينة وماجاورها ولقد سجل في العام الماضي ٩٠٠٠ من الكبار ، في سنسناتي ، أسماءهم في فصول التجارة والآداب والهندسة والفنون التطبيقية . ولوحظ أن الطلبة — الذين تتراوح أعمارهم من ١٦ الى ٦٩ سنة —

تبادل الطلبة

قد التحقوا بكليات وجامعات امريكا خلال العام المكتبي الفائت . وتتألف هذه الحملة

ورد عن ادارة التربية بالولايات المتحدة ان نيف وواحد وعشرين ألف طالب أجنبي

وقدرة إدارة التربية عدد الطلبة الأمريكيين الذي يتلقون العلم - خلال نفس الفترة - في الخارج بأحد عشر ألف طالب منهم نحو ٥٥٠٠ من الجنود المسرحين.

من ٧٤٦٩ طالباً من أوروبا وجامعة البلدان البريطانية و ٥٤٦ طالباً من الصين والشرق الأقصى و ٧٦٦ طالباً من الجمهوريات الأمريكية و ٣١٤٢ طالباً من الشرق الأدنى وأفريقيا.

عيادة النطق

علاجات النطق والسمع - زيارة المدارس في المدن وفي المناطق الريفية . فتعطي الأطفال المصابين باضطرابات خطيرة في السمع أو النطق ، اختبارات اضافية وتعقد لهم محادثات تنتهي بعلاجهم علاجاً خاصاً ، وبإعادة توجيههم . وكنتيجة للاختبارات التي أجريت خلال عامين ظهر - كما تقول الاحصائيات - ان واحداً من كل خمسة ، من الأطفال الذين أجريت عليهم الاختبارات ، يشكو من واحد أو أكثر من عوائق النطق ، وواحداً من كل عشرة أطفال يشكو من بعض عاهات السمع .

مضت أعوام ثلاثة على « عيادة النطق المتنقلة » - التي يقوم بالعمل فيها اختصاصيون بصحبة أجهزة خاصة لاختبار نطق أطفال المدارس وسممهم - في ولاية مينوزوتا بالولايات المتحدة . ولقد قامت العيادة - كما بينت جامعة مينوزوتا المشرفة عليها - باختبار ٧٠٠٠ طفل في تسع عشر منطقة . وتمول العيادة من التبرعات التي تجمعها جمعية مينوزوتا للمعمدين من الأطفال والكبار .

وتقوم هيئة العيادة - المؤلفة من أربع نسوة كلهن جامعات إحصائيات في

الطائرة الاولى تعود إلى امريكا

« كيتي هوك » والطيران بها . وكان رايت قد أعار الطائرة لمتحف لندن عام ١٩٢٨ . وحفظت الطائرة « كيتي هوك » في متحف الطيران القومي التابع لمجمع سميثسونيان بمدينة واشنطن . وحل محل الطائرة التاريخية في متحف لندن ، مثال لها طبق الأصل لمنع خصبها لهذا الغرض

أعاد متحف العلوم البريطاني بلندن ، إلى الولايات المتحدة ، الطائرة « كيتي هوك » التي قامت بأول رحلة - في الولايات المتحدة - تقوم بها طائرة ذات محرك أثقل من الهواء في السابع عشر من ديسمبر عام ١٩٠٣ . وكان ذلك بناء على ما جاء بوصية أورفيل رايت الذي قام مع أخيه ولبر ببناء الطائرة

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الخامس عشر بعد المئة

آياته في خلقه : للحياة موكب هو من آيات الخلق : اسماعيل مظهر	٢٢٧
صديقي : (قصيدة) : يوسف جبرا	٢٣٣
نظرات في النفس والحياة - نظرات جوته : ع . ش	٢٣٥
العناية بصحة العامل : الدكتور حسن كمال بك	٢٤٣
حجة فلسطين ومن ذا الذي كتبها لليهود : نقولا الحداد	٢٥٠
التقاليد عنقاء موهومة : اسماعيل مظهر	٢٥٦
عروس النيل - أعياد النيل عند قدماء المصريين : انطون زكري	٢٥٩
ترتيلة السحر : (قصيدة) : عبد السلام رستم	٢٧٤
الأطفال المشردون : (قصة) : جورج نيقولاوس	٢٧٦
معهد سميثسونيان : أمين عبده	٢٨٧
التقدم الصناعي في مصر : الدكتور حافظ عفيفي باشا	٢٩٢
١٨ أكتوبر (قصة) ابراهيم الاياري	٣٠٤
بين الصحافة والأدب : وديع فلسطين	٣٠٩
توم جونز (قصة) : مبارك ابراهيم	٣١٥
شعراء مصر في العصر الحديث : ترجمة رملان البني	٣٢٦

مكتبة المقتطف * الوساطة الروحية : ابراهيم الاياري . غرام سنوحي . طريق الهدى للشباب : وديع فلسطين . معجم عطية في العامي والدخيل . تراثنا الاجتماعي وأثره في الزراعة . البدوي الملم باب الاخبار العلمية * لوثر برينك الساحر الاميركي النباتي . عصا السحر العلمي ومنتجاتها . كيف شاعت شهرته وماذا ربح أولاً . المعجزات الفنية في تربية النباتات . تقصير أشجار الكسنة الباسقة . جوز له قشر رقيق كالورق . توت أبيض من أصل اسود . البرتقال أبو مرة . طائفة من الثمار المهجنة . شجرة تثمر بطاطس وطماطم في آن واحد . تين خال من الشوك . كيف تنضج النباتات الجديدة وأين توجد ؟ . وسائل تحديد النباتات . الطريقة الاولى للتحديد النباتي . تطعيم الشجر . كيف اكتشف برينك البرقوق المسمى باسمه . افجوان شاشا . كيف تنضج الأنواع الجديدة من النباتات نشوءاً فجائياً . ساعة منبهة توثق بالمعجم : عوض جندى . ٣٢٠٠٠ طالب في مدارس الولايات المتحدة . ازدياد الطيران المدني في امريكا . كلية مسائية لتعليم الكبار . تبادل الطلبة . عيادة النطق . الطائرة الاولى تعود الى امريكا .	٣٣٠
	٣٣٨